3

أرشيفو

ARCHIVO

نشرة تهتم بموضوعات الأرشيف تصدر عن
مركز أوال للدراسات والتوثيق
العدد 3 - آب/ أغسطس 2016

أرشيفو
ARCHIVO

نشرة تهتم بموضوعات الأرشيف تصدر عن
مركز أوال للدراسات والتوثيق
العدد 3 - آب/ أغسطس 2016

نشرة تصدر كل شهرين عن مركز أوال للدراسات والتوثيق، تحت عنوان (أرشيفو) تعنى بقضايا الأرشيف، تنطلق من البحرين إلى الخليج إلى العالم العربي وخارجه.

تغطي النشرة المجالات التالية: المشكلات التي تواجه الأرشيف، طرق حفظ الأرشيف، التعريف بأصحاب الأرشيف الأهلي ومراكز الإرشيف الرسمي، التعريف بالمدونات والمواقع الإلكترونية المهتمة بالوثائق والأرشيف، ترجمة المقالات المنشورة بلغات أجنبية، مراجعة الكتب المتعلقة بالأرشيف ومتابعة الأنشطة والفعاليات ذات العلاقة بالذاكرة والأرشيف.

عنوان النشرة يشير إلى أن كلمة (أرشيف Archives) متقاربة النطق والكتابة والجذر في أغلب لغات العالم، وفي اللغة البرتغالية تنطق هكذا (أرشيفو Arguiv).

رئيس التحرير : د. علي الديري
مدير التحرير : وسام السبع
سكرتيرة التحرير : آلاء هاشم

مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION
info@awalcentre.com | www.awalcentre.com
awalcentre

الفهرس

1 | الافتتاحية 5
الأرشيف: الوجود والعدم 5

2 | أمناء الذاكرة 7
المؤرخ سعدون حمادة: التّأريخ اللّبنانيّ معظمه مختلق.. 7

3 | ديوان الذاكرة 15
مركز الدّراسات الفلسطينيّة: وثائق وصور نادرة 15

4 | ثقافة أرشيفية 21
المجلس الدولي للأرشيف 21
كيف يصنع الأرشيف التّاريخ؟ 25
أساليب حفظ المصغرات الفيلمية 28

5 | وثيقة وحكاية 33
التعليم وميزانيات البحرين في عهد بلجريف 33

6 | كشكول 39
أحاديث قريتي: قرية المعامير البحرينية 39
فوبيا الكاميرا: بين أن أُعدم أو أن أَعدِم أرشيفي 50
أول بعثة بحرينية للجامعة الأمريكيةَ 58

7 | متابعات 67

8 | ذاكرة الصورة 73
المنامة مشي وسِيَر وصور ودكاكين 73

الافتتاحية

الأرشيف: الوجود والعدم

رئيس التحرير

على غرار كوجيتو ديكارات الشهير»أنا أفكر إذن أنا موجود» يمكننا أن نقول «لديّ أرشيف إذن أنا موجود».

يحقق الإنسان وجوده بالنضال ضد العدم الذي يتهدده بالمحو والإلغاء، من أجل أن يخلق له سجلاً يحفظ فيه حياته التي خاضها سلماً أو حرباً. سارتر كتب فلسفته (الوجود والعدم) وهو يخوض المقاومة الفرنسية إبان الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، حين كان النازي يلاحق الوجود الفرنسي ليحوله إلى عدم، وجاءت فلسفته (الوجودية) لتحرض الفرنسيين على صنع أرشيف حياة لمقاومة (العدم) النازي. انتصر الأرشيف الفرنسي، وصار جزءًا من ذاكرة وطن كاد يحتضر في لحظة عدمية شديدة السواد.

الأرشيف هو جهد الإنسان في إثبات وجوده على نحو ما، وكل وجود في الحياة يتضمن صراعاً ونزاعا مستمراً مع الغير الذي يريد لوجودك العدم، يظل العدم يلاحق الوجود، والغلبة تكون لمن يملك الأرشيف حياً ناطقاً وشاهداً على الوجود، هكذا يتحقق لوجود الإنسان الانتصار في الحياة.

لقد اخترنا في مركز أوال للدراسات أن نطلق (محرك بحث أرشيف أوال) في يوم الأرشيف العالمي 9يونيو، تحت شعار «الأرشيف: الوجود والعدم» ليكون أحد أدوات النضال من أجل الوجود، ضد عدم الوجود الذي يتهددنا من كل جهة.

لطالما خاض الإنسان صراعات وجودية مريرة، قاوم فيها عمليات تدمير ممنهجة ومنظمة، وقد شكّل (الربيع العربي) والحروب التي تشهدها المنطقة اليوم بعض تجلياتها. دمر العدم فيها جزءًا كبيرًا من ذاكرة أرشيفنا في الجزيرة العربية، وامتدت يده إلى الموصل وتدمر ومصراته وطرابلس وتمبكتو، ووصل الأمر إلى أن تعلن المديرة العامة لليونيسكو (ايرينا بوكوفا) أن هذا الدمار «جريمة حرب» فـ «تدمير تراث ثقافي للبشرية» يعد كذلك «بموجب معاهدة لاهاي».

أمناء الذاكرة

التّأريخ اللّبنانيّ معظمه مختلق.. معارك مضخّمة وحوادث مغيّبة

المؤرخ حمادة: الشّيعة كتبوا أهمّ ثورة في عهد العثمانيّين

زينب الطحان

سلبت لبّ قلبه رحلات ابن بطوطة «تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، حين كان تلميذًا يقرأ كتاب التأريخ عن بلده لبنان. كانت تدور العديد من الأسئلة في رأسه الصغير: كيف؟ ولماذا؟ لم تشفِ أيّ إجابة غليل تعطّشه إلى معرفة تلك «الثغرات الكبرى» التي كانت سرديات التاريخ اللبناني تغرق بها. كان يجيد ربط الأحداث فيما بينها، فقد علّمته قراءة رحلات المؤرخين العرب الكبار أنّ هذه الحادثة، أو تلك، تكون مقنعة وواقعيّة، عندما تجتمع شواهد وقائعية تثبّت دلالتها الإنسانيّة والحضاريّة.

هذا الشّغف بالتاريخ جعله يؤسّس لمكتبة خاصّة وفريدة في نوعها، تحتضن كلّ أنواع الكتب، وإن كان أكثرها حضورًا، هو كتب التاريخ والتراث، وهو لم يعتدْ على تعداد ما يملكه من ذخائر المعرفة الورقية، فالأرقام لا تعني له شيئًا، بل الأهم هو نوع الكتاب وما يقدّمه من معرفة وثقافة.

هذا الشّغف رافقه منذ الصّغر حين كان يستمع إلى حكايات أجداده عن ضيعته في محافظة الهرمل البقاعية، والّتي كانت أكثر تماسكًا وإقناعًا من كتاب التاريخ المدرسي. كبر الشاب سعدون حمادة، وعيناه شاردتان نحو تلك المتاهة التخيليّة التي صنعت له مرويات كتبت هنا وهناك، وقُدِّمت له ولجيله، ولا تزال تُقدَّم لجيل اليوم، على أنها تأريخ بلده «العريق» لبنان.

يقول حمادة: «مذ كنت على مقاعد الدراسة الابتدائيّة، كانت قصص التأريخ تجذبني، إلّا أنّي كنت أغتاظ من

بعض الدروس فيها، فقد كانوا يدرّسوننا معلومات لم أكن أجدها مقنعة، وكانت تثير لديّ شكوكًا عديدة حول منطقها في سرد الأحداث، فقرّرت أن أقوم بنفسي ببحث تاريخيّ، ليس حول بلدي لبنان فحسب، بل حول البلاد العربية كلّها».

كبر حلم سعدون الصّغير معه، حتى تخصَّص في دراسة التّاريخ. وفي السّبعينيات من القرن الماضي حين كان يحضّر أطروحة الدكتوراه تحت إشراف أحد المستشرقين في فرنسا، ارتكب أكبر خطيئة في حق تاريخ لبنان وأهل منطقته، فبعد أن كان يعتبر أنه قدّم إنجازًا على صعيد كتابة التاريخ في لبنان، لم يطل به الأمر حتّى اكتشف أنّه بثّ في بحثه كلّ النّقائص والمساوئ الدخيلة على التاريخ اللبناني...

«شعرت أنّه عليّ القيام ببحث آخر أصحّح فيه ما اقترفته يداي، أو أمحيه على الأقل أو أخفّف منه...»، يقول حمادة. ويشير إلى أنّ تلك المحطّة من حياته، قلبت كلّ المعايير السّابقة لديه في قراءة الأحداث التاريخية، وأضحى يرى بعين الناقد المتفحّص أنّ بعض المصادر المطبوعة هي مصادر مدسوسة أو موضوعة، ولا تستند إلى الواقع التّاريخيّ الصّحيح.

ويضيف: «كان كلّ مؤرّخ يكتب حسب أهدافه ومصالحه وأهوائه الشّخصيّة، وخصوصًا في لبنان؛ هذا البلد المعروف بطوائفه وأحزابه السياسية المتعدّدة والمختلفة... في الحقيقة، كان التاريخ اللبناني حتى فترة قريبة محصورًا بالتاريخ الديني، وتحديدًا التاريخ الكنسي وحياة القديسين. ومن ثم صار البعض يهتمّون بالتاريخ السياسيّ الدينيّ، وعلى رأسهم البطريرك حويك، الّذي بدأ بتدوين تاريخ لبنان كما يراه. ومن المعلوم أنَّ قضايا التاريخ شائكة، وقد تخرج عن نطاق الطبيعة، ولذلك، كتب البعض تاريخ المناطق اللبنانية على أنه تاريخ لبنان، فكان ما كتبوه مشوّهًا وناقصًا، وفيه ثغرات كبيرة جدًا حول العديد من المفاصل والتغييرات المصيرية...».

والغريب أنّ من أتى بعدهم من مؤرخين، حتى في العصور الحديثة، لم يجدوا بين أيديهم غير هذه الكتب التاريخية المشوّهة، التي يشوبها نقص على مستوى المراجع، فاعتمدوا عليها، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث الجدي لكشف الحقائق وملء الثغرات...

أنواع الوثائق بين رحلة البحث والتنقيب

بعد رحلة مضنية من البحث في المصادر العربيَّة ومراجعها، توصّل المؤرخ حمادة إلى مصدر حمله إلى خارج المنطقة العربية، وهو الأرشيف الموثّق في الدول الأجنبية، الذي يتمثل «بالرسائل الموجودة في القنصليات والسفارات الأجنبية التي كانت تحتلّ لبنان.. فالدبلوماسي الذي يمثّل دولته المحتلة، كان يكتب تقاريره إلى حكومة بلده، وكان عمله مشابهًا لعمل الصحافي الدقيق، الذي يكتب تقارير ويستنتج المعاني السياسية وأبعادها، ويرسلها إلى حكومته... وهناك بلدان أجنبيّة، مثل فرنسا وإنكلترا وروسيا والنمسا، تمتلك أرشيفًا ضخمًا عن لبنان، لا سيما فرنسا التي كان يخضع لاحتلالها، فقد كان لديها قنصل فرنسيّ في طرابلس وآخر في صيدا وفي صور وفي مختلف المناطق اللبنانية، وكذلك في الشام وفي دمشق.. وهذه الوثائق الدبلوماسيّة هي مصدر مهمّ جدًا لكتابة تاريخ لبنان...».

والمصدر الآخر هو الأرشيف العثماني، ذلك أنّ الأتراك حكموا لبنان حوالى 400 سنة، وعلى الرّغم من طغيانهم ومساوئهم السّياسيّة في الحكم، فقد كانوا متقدّمين جدًا من ناحية الإدارة، وكانت إدارتهم متماسكة. ويضم الأرشيف العثماني الحالي مئات الآلاف من الوثائق التي تتعلّق بتاريخ لبنان، كونه كان ولاية عثمانية ضمن إمبراطورية متنامية..

غير أنّ هذا الأرشيف ـ كما يقول حمادة ـ غير موثّق بأسلوب عمليّ وعلميّ، ما يجعل مهمّة الباحث في الوصول إلى ما يريده صعبة للغاية، إذ نجد أنَّ ثمة مجموعات هائلة من الوثائق الرسمية والملفات غير موثقة ضمن آلية محددة، فيبقى أمام الباحث الجادّ الاعتماد على جهده الخاص في التنقيب والبحث، وربما يحالفه الحظّ في العثور على ما يبتغيه. إنّ هذا الأرشيف الغنيّ جدًا يحتاج إلى مؤسَّسات مختصّة للقيام بعملية أرشفة وفق قواعد العلم التوثيقي الحديث، وهذا الأمر ليس متوفرًا حتى الآن، في حين أنّ الأرشيف الفرنسيّ يضمّ معلومات مؤرشفة وموثقة وسليمة عن تاريخ المنطقة السورية أو عن قرية ما في جبل عامل، ومن السّهل الوصول إليها.

من هنا، تعدّ مهنة المؤرخ الباحث عن الحقيقة شاقّة، وليس فيها تهاون فيها أو ملل. ورغم كلّ المعوّقات التي واجهت حمادة في رحلة بحثه، فقد وفّق في الحصول على وثائق عديدة، وكان يهتم إلى أبعد حدّ بالوثائق القديمة، فيذهب متقصيًا مكانها ومكان صاحبها للاستفادة منها. من جهةٍ ثانية، لا يقبل حمادة إجراء مقارنة بين عملية البحث التاريخي في المنطقة العربية مع تلك الحال

من هنا، تعدّ مهنة المؤرخ الباحث عن الحقيقة شاقّة، وليس فيها تهاون فيها أو ملل. ورغم كلّ المعوّقات التي واجهت حمادة في رحلة بحثه، فقد وفّق في الحصول على وثائق عديدة وكان يهتم إلى أبعد حدّ بالوثائق القديمة، فيذهب متقصيًا مكانها ومكان صاحبها للاستفادة منها.

الإجرائية في مكتبات أوروبا التي سافر إليها، حيث كانت كلّ الوسائط مهيأة له هناك، في ظل تشجيع كبير على البحث التاريخي، «فهناك أجد دومًا من يساعدني للحصول على وثيقة ما، إضافةً إلى التنظيم المتوفر في مكتباتهم العلمية التي تساعد الباحث بشكل كبير»، يقول حمادة.

ولكن ماذا عن نوع الوثائق الّتي كان يحوزها ويستطلع منها الأحداث ويستقرئها؟ يقول المؤرخ حمادة إنّ هناك نوعين من الوثائق المعتمدة عادة؛ الأوّل هو المراسلات السّريّة الّتي كان يكتبها الوالي أو الحاكم، ويرسلها إلى السّلطات العليا في الدولة... وفي ذلك الوقت، لم يكن بإمكان القناصل الوصول إلى هذه المراسلات، لكونها وثائق دولة ورسمية، غير أنها صارت الآن متوافرة لكل من يريد الاطلاع عليها.

أما النوع الثاني من الوثائق، فهو مجموعات من البيانات لا تكفي لأن تؤسّس وحدها لعمل بحثيّ تامّ، ولكن يمكنها أن تشكّل إضاءات على بعض الزوايا المحدّدة المجهولة في تاريخ لبنان، ومن السّهل الوصول إليها، وبعضها موجود مثلًا في محكمة طرابلس الشّرعية.. ويضم أرشيف هذه المحكمة حاليًا مجموعة من الوثائق العثمانية، هي عبارة عن تصاريح رسمية صارت بمتناول اليد، وأصبحت مجهّزة بواسطة الميكروفيلم. كما أنّ هناك مجموعة وثائق في محكمة صيدا، ولكن الكمّية التي بقيت منها مع مرور السنوات ليست كبيرة، إنما يمكن لها الإضاءة على بعض النواحي... وهناك وثائق في الأديرة الدينيّة، وعلى رأسها البطريركية المارونية، وقد اعتمد حمادة على هذا النوع من الوثائق بشكل كبير.

ويضيف المؤرخ حمادة أنَّ هناك نوعًا ثالثًا من الوثائق يمكن الحصول عليه بالطرق الخاصّة. وهناك طريقة اعتمد عليها إلى حدٍّ كبير، حيث حصل على ما يقرب من مئة وثيقة تاريخيّة، واستطاع بفضلها بناء رؤية معيّنة أكثر وضوحًا حول تاريخ لبنان، وهي مقنعة إلى درجة مهمة، ومنطقية بشكل أكبر من السرديات التي تحويها الكتب التاريخية السابقة على عمله.

في روايته عن التّاريخ اللبنانيّ، يقول حمادة: «إنّ تاريخ لبنان الموجود بين أيدينا لا صلة له بالحقيقة الواقعيّة، وهو عبارة عن مجرد تهيؤات وتصوّرات وضعها من يرغب في الإضاءة على تاريخ محدّد، ولو كان بعيدًا عن الواقع. وتاريخ اليوم يقتصر على تاريخ الشوف، حيث يختزلون به تاريخ كلّ لبنان. يحكي هذا التاريخ عن الشهابية والأمير فخر الدين والمعنية، وهؤلاء لم يحكموا طوال تاريخهم أي منطقة خارج الشوف، التي لم تكن تشكل أكثر من خمسة عشر في المئة من مساحة لبنان. لم يلتفت الكثير من المؤرخين إلى هذه الحقيقة أبدًا، ذلك أن التحيّز أعماهم، ونحن نسأل: أين تاريخ بيروت وطرابلس والبقاع وبيت الدين ودير القمر؟ لقد كتبت بنفسي عن كلّ هذه المناطق».

لم يكتفِ حمادة بالإضاءة على تاريخ تلك المناطق، واهتمّ بشكلٍ كبير بتاريخ جبل عامل، الَّذي ظلّ مغيّبًا، ولم يكن يربط بتاريخ لبنان، وتعمّد البعض نسيانه بشكل كلّي، وكأنه لا ينتمي إلى البلد، في حين أنّه كان تابعًا لولاية الشام. من هنا، كتب سلسلة «تاريخ الشيعة في لبنان».

هل أحدث توثيق حمادة الحديث لتاريخ لبنان انقلابًا

ما أو تغييرًا، أو صنع رؤية مغايرة عن لبنان وكسر صورته النمطيّة في كتب التاريخ؟ نسأل حمادة هذا السّؤال السياسيّ، فيجيب بأنّه لا يحبّ المبالغة في التوصيف أو التقويم الفعلي لما تركته أبحاثه وكتبه من أثر في الشّارع اللبنانيّ الاجتماعيّ والسياسيّ في المستوى الأول، ولكن هذا لا ينفي ما أحدثته السّلسلة الّتي أصدرها من نسق جديد غير مألوف في البحث التاريخيّ، وهو لا يوصّف عمله كاملًا، بل لا يزال يرى أنّ هناك فجوات كبيرة لمّا تسدّ بعد، وتحتاج إلى البحث عن الرواية التاريخية الأصلية وربطها بالأحداث المتداولة والمدوّنة، ليستخرج منها سردًا أكثر التصاقًا بالواقع، وهذا بالطبع يحتاج إلى المزيد من الجهد الإضافيّ والمضني.

ويشير حمادة إلى أنَّ النسق الجديد المغاير في كتابة التاريخ، والذي اعتمده هو وغيره من الباحثين الجادين، ساهم في إعداد دراسات في أوروبا عن تاريخ لبنان، تصحيحًا للسابق ونفضًا له وتصفيةً من الأوهام والتخييلات، ليصبح تاريخًا حقيقيًا يمكن الأخذ به.

الباحث عن الحقيقة.. متى يكون مؤرخًا علميًا؟

سألنا حمادة عن الإشكاليّة القديمة ـ الحديثة المتمثلة بتورّط المؤرخ في التحيّز إلى أبناء طائفته أو مذهبه، وعما يفعله في حال كان ابن طائفة قد غيّب تاريخها طوال عهود طويلة، فقال: «هذا السؤال مهم جدًا، ولطالما كنت أطرحه على نفسي، فالإنسان يميل غريزيًا إلى بيئته وأهل داره ومقره ومسقط رأسه، ولكنني كنت أحاول دومًا، قدر المستطاع، إنشاء مسافة موضوعية وعلمية بين هذا الولاء والمعلومة الواقعية، مهما اختلفت مع أهوائي الخاصة، لكي تكون الوقائع هي التي تحكي وتحركني، لا عواطفي. ولقد نجحت في ذلك إلى حدّ بعيد، إلى درجة أني لاحظت بعد النشر وتداول الأبحاث والكتب، أني غبنت طائفتي في أكثر من موقع وحادثة...».

طرحنا عليه سؤالًا آخر: «إلى أيّ مستوى قد يعيق عدم الانتماء إلى تيار سياسيّ محدّد، المؤرخ عن الحصول على مادته السردية؟»، وفي جانب آخر من السؤال: «هل يحدّد انتماء المؤرخ السياسي سلفًا انحياز رؤيته في سردياته؟»

يؤكّد حمادة أنّ التّاريخ هو ما يكتبه عادة المنتصرون، فمؤرخ السلطة أو المعارضة أو الحزب السياسي، لا يعدّ مؤرخًا، بل هو بوق، كما أنه ليس صاحب مبادئ، بل هو خطيب يروج لمبادئ الذين ينتمي إليهم.. «أول شرط ليكون الباحث مؤرخًا، هو البحث عن الحقائق بنفسه. ومن جهة أخرى، عليه أن يبعد هذه الأنا أو الميول أو المراكز عن بحثه. معظم المؤرّخين في لبنان كتبوا تصوّرات للأحداث الّتي يريدونها هم وجماعتهم. وأحيانًا كثيرة، لم يكن ما كُتِب على علاقة بالواقع الحقيقي على الإطلاق. هناك وقائع اخترعوها، وهناك وقائع بسيطة بالغوا فيها إلى حد بعيد، وجعلوا منها قصة مركزية، فصار التّاريخ مُفَبركًا، وتمّ تسويقه، وخلقت فيه أسماء غير موجودة أصلًا».

وإذا دخلنا إلى التاريخ مع حمادة، نسمع بمؤرخ يدعى الأب جبران، عاش في أوائل القرن العشرين، عندما كانت متصرفية لبنان تابعة للدولة العثمانية التي كانت في طريقها نحو الانهيار، فأنشأ وقائع تفشي ميوله وتبيّن رغبته في الانفصال عن المحيط العربيّ. وفي تلك الحقبة، انقسم اللبنانيون، فمنهم من أراد الانضمام إلى مشروع سوريا الكبرى، ومنهم من رغب في الانتماء إلى الغرب الأوروبي عبر فرنسا، فنجح العديد من المؤرخين في خلق معارك وهمية. ونحن نحتاج، للأسف، إلى وقت طويل للتخلّص من هذه الوقائع الدخيلة والمزيفة. فمثلًا، تعد معركة عنجر في كتب التاريخ اللبناني، من أهمّ المحطات التاريخية، ويؤكّد البعض أنها وقعت بين فخر الدين والمعنيين[1]، لكن في واقع الأمر، يشير ما توصلت إليه من حقائق حسب الوثائق، إلى أن معركة عنجر وقعت بين الدولة العثمانية متمثلة بكلّ ولاتها، وكان من بينهم فخر الدين آنذاك، والمعارضين أو أعداء السلطة الذين كانوا شيعة البقاع في ذلك الوقت...».

ويتابع حمادة سرده التاريخي، ليعطي مثلًا آخر حول معركة «عين دارة»، التي يقال إنها وقعت بين القيسيين واليمنيين الذين كانوا في لبنان، معتبرًا أنّ الأمر غير صحيح، فهذه المعركة وقعت في الشوف بين جند بعلبك وبعض أنصار الوالي الذي كان معينًا وقتها فيها من قبل والي صيدا.. وما يؤكّد هذه الحقيقة هو تقرير القنصل الفرنساوي الذي عاش المعركة وواكبها، ونقل ما حدث فيها.

ويلفت إلى أنّ تاريخ لبنان في الإمبراطورية العثمانيّة، كان تاريخ صراع بين الدَّولة العثمانيَّة وأهل البلد، الذين كانوا معظمهم من الشيعة، وكان ثمّة معارك متواصلة بينهم، لأنّ اللبنانيين كانوا يرفضون أي حاكم من الخارج.. وكانت الدولة العثمانية في معظم الأحيان تضطر إلى الخضوع للأمر الواقع الذي كان يفرضه الأهالي بعد نزاعات عسكرية عديدة.. وكانت تعترف بالحكام المحليين.

تغيير كتاب التّاريخ المدرسيّ.. هل يحصل؟!

إلى أيّ حدّ تأمّل بتغيير كتب التاريخ اللبناني في المدارس، والَّذي لا يزال يشكّل أزمة هويَّة متأصلة؟ لا يبدي حمادة تشاؤمًا مطلقًا عند الإجابة عن هذا السؤال، فهو مؤمن بأنَّ التغيير آتٍ مهما تأخر، «ولا بدّ من أن يأتي ذلك اليوم، وتتغيَّر كلّ تلك الكتب التاريخية المفبركة حول تاريخ لبنان، فلا يستطيع أحد أن يخبئ التاريخ إلى الأبد، مهما كانت سلطته وقوته».

ويتابع: «الحقيقة تفرض نفسها في النهاية، فكما أثبتنا بعد عقود حقيقة معركة عين دارة، سيأتي باحث آخر ليخبرنا حقيقة جديدة موثّقة وناصعة، فقد كثر المؤرخون الباحثون عن الحقيقة بالوسائل العلميّة».

لا يرى حمادة أنَّ مشروعه التّغييريّ في كتابة التاريخ قد انتهى وهو في هذا العمر، فلا يزال يحصل على وثائق بطرق مختلفة، ورغم أنه لا يدري الآن أهميّتها، ولكنه على يقين بأنّها ستبلور له العديد من الحقائق، مثلما حدث معه في موضوع كشف الثورة الشيعية في لبنان، التي حدثت في جبل لبنان ثم انتقلت إلى جبل عامل والبقاع، وهي ثورة مغيّبة تمامًا من تاريخ لبنان ولم يذكرها أحد.

والغريب، بحسب حمادة، أنّ أهمّ الأحداث في عهد الإمبراطوريّة العثمانيّة وقعت في هذه الثورة، فعلى مدى خمسة وعشرين عامًا، كانت الجيوش العثمانية تتوالى من الأناضول، وعلى رأسها أهم قادة الجيش العثمانيّ. وقد حاول سبعة صدور عظام الدخول إلى جبل عامل، فلم يوقفوا الثورة أبدًا. وجاء كتابه «الثورة الشيعية في لبنان» ليكون الأكثر سطوعًا وإضاءة على هذه الحقيقة التاريخية.

وهو يدلف بنا في هذا المنعطف ليعرّج سريعًا على الوجود التاريخي للشيعة في المنطقة، متسائلًا عن تلك القدرات الهائلة في حفظ وجودهم والهوية الخاصة بهم، حيث لم يقدر أحد على هزيمتهم، رغم كلّ التضحيات التي بذلوها، لأن الدولة العثمانية كانت تنظر إليهم من وجهة نظر دينية، وتتّهمهم بالكفر، وتعلن واجب الجهاد ضدهم، فكانوا يقاتلون دفاعًا عن وجودهم، حتى أصبحوا محاربين شرسين عبر التاريخ.

ويختم حمادة متسائلًا: «من هم هؤلاء الَّذين وقفوا في وجه إمبراطورية طويلة عريضة ولم تستطع فرض السيطرة عليهم؟! أتساءل أحيانًا: هل كان للشّيعة سياسة موجّهة؟! من المؤكّد أن الدفاع عن النفس يدفع الإنسان بقوّة غير متوقّعة على الإطلاق».

زينب الطحان: أستاذة جامعيّة وكاتبة وصحفيّة، متخصّصة في النقد الأدبي والسرد الروائي، صدر لها كتابان حول آداب ما بعد كولونيالية، أعدت أطروحة الدكتوراه حول الهجرة والهوية في رواية بدايات لأمين معلوف.
للتواصل عبر الإيميل: riza_zein@hotmail.com

هامش:

1. يُنسب المعنيون إلى «بنو معن بن مالك بن فهم التنوخي»، وقيل إلى «معن بن زائدة» الذي كان من ولاة العباسيين ومن أجواد العرب.استوطنوا مناطق جبل لبنان الجنوبية في العام 1120م بأمر من حاكم دمشق للتصدي للغزوات الصليبية. وخلال حكم الفاطميين تحولوا إلى المعتقد الدرزي. وفي معركة مرج دابق (1516م)، ساند فخر الدين المعني بن قرقماز السلطان سليم الأول العثماني في معركتهم ضد المماليك مما اكسبه حُظوة لديهم،، وحصل على نوع من الاستقلال الجزئي. ولقب المعنيون بالامراء حتى عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، الملقب بسلطان البر،(1570-1635م) الذي أنشأ امارة مستقلّة عن العثمانيين بمساعدة الاوربيين. وانتهت الامارة المعنية بنفي الأمير فخرالدين الثاني إلى الاستانة في العام 1635م.

IPS

ديوان الذاكرة

«مركز الدّراسات الفلسطينيّة» أرشيفًا ومكتبة: تطوير دائم وسعيٌ لتطبيق معايير «مكتبة الكونغرس».. ووثائق وصور نادرة

حسن زراقط

تحتفظ «مؤسَّسة الدّراسات الفلسطينيّة» بأرشيف بعضه نادر. ويكفي احتواؤه على مواد رقميَّة أو ورقية تتعلّق بفلسطين، حتى يعرف الباحث قيمته. تسعى مكتبة المؤسّسة إلى التطوير المستمر لتطبّق المعايير المتبعة لدى «مكتبة الكونغرس» الأميركية، معتمدةً على تجارب مؤسّسات متخصّصة في الأرشفة والحفظ. ويساهم قسم الأرشيف والمكتبة في المؤسّسة مع الباحثين فيها في إعداد ملفات مهمّة، مثل ملفّ المسجد الأقصى.

تقول أمينة مكتبة «مؤسَّسة الدّراسات الفلسطينيَّة»، جانيت ساروفيم[1]، إنَّ المكتبة تأسَّست مع قيام المؤسَّسة في العام 1963، وتوسّعت لتحتلّ أربعة طوابق من مبنى المركز. يضم الطّابق الّذي تتواجد المكتبة فيه، الكتب المرجعيَّة، ومكانًا للزوار الَّذين يريدون إجراء أبحاث واستخدام الحاسوب.

تقول ساروفيم: «نعمل حاليًا على تنمية الأرشيف وتطويره، ونحاول رقمنة كلّ شيء منذ سنتين، وأنشأنا غرفة خاصَّة ومبردة تضمّ كلّ شيء في الأرشيف». وتضيف: «يتكوّن الأرشيف لدينا من مجموعة من الصّور والأوراق الخاصّة الّتي وهِبَت للمؤسَّسة أو تمّ شراؤها، ولدينا مجموعة «بوسترز» (ملصقات) وأفلام، وتوجد كتب قديمة صادرة عن فلسطين يعود تاريخ بعضها إلى القرن التاسع. نهتمّ بهذه المواد عبر تنظيفها من الغبار قبل إدخالها إلى غرفة الأرشيف، ولدينا مجموعة كبيرة من «ميكروفيلم» (فيلم مصغّر)، وصحف قديمة على «ميكروفيلم»، قمنا برقمنة جزء منها ووضعناه على «هارد ديسك» (القرص الصلب للحاسوب)».

هل انتهى استعمال «ميكروفيلم» حاليًا؟ تجيب ساروفيم عن هذا السؤال بالقول: «نستعمله ونحتفظ بالنسخة الأصلية، ونُرَقْمنه كي يصبح استرجاعه أسهل. والصّحف الفلسطينيّة محفوظة عليه».

تتحدَّث ساروفيم عن انطلاقة العمل في أرشيف المركز وتجهيزه، فتقول إنَّ المؤسسة استشارت أشخاصًا عديدين، «ووقعنا اتفاقات مع مؤسَّسات لرَقْمَنة الصور، ومنها «المؤسَّسة العربيَّة للصّورة»، الَّتي وقعنا معها اتفاقية استشاريَّة ساعدتنا وأعطتنا نصائح ودرّبتنا على أمور عدة. ووقّعنا أيضًا اتفاقيّة مع «جامعة الكسليك»[2]، فأرشفت الصّحف الفلسطينية القديمة وقامت برقمنتها، وهنا يحاول قسم الأرشيف أن يطّلع على كلّ المعايير العالمية الجديدة للأرشفة والفهرسة، ويحاول أن يعتمد المعايير التي تعتمدها «مكتبة الكونغرس الأميركية».

عن فترة التَّحضير للأرشيف، تذكر ساروفيم أنّ العمل على أرشفة الصّور بدأ منذ عشر سنوات بإنشاء قاعدة بيانات داخلية، تحتوي وصفًا لكلّ صورة، وبدأنا بِعَمَل «سْكَان» (مسح رقميّ للصور)، والآن نقوم بمسح كلّ شيء رقميًا، كي تكون جودة الصّورة أحسن، كما بدأنا منذ ثلاث سنوات برقمنة الصّور».

حاليًا، تشير ساروفيم إلى أنّ الأرشيف كلّه «غير متوافر للنّاس، ولكن مع الوقت سيتمّ وضع موادّ من الأرشيف على الإنترنت». أما بالنسبة إلى أقسامه في المركز، فتوضح ساروفيم أنّ هناك قسمًا للفهرسة مخصّصًا للصّور، وأن هناك فريقاً واحداً يعمل على الفهرسة، وآخر على «سْكَان».

ولدى المركز شخص متخصّص بِعَمَل «سْكَان»، وهناك مشرف على عمله، تشرح ساروفيم، حيث «يتولّى المتخصّص أيضًا فهرسة المادة، ويتولى عامل في القسم أعمال التنظيف (للمواد)، وكلّ وثيقة نضعها في ورقة حافظة خالية من «الأسيد» على قياسها، ثم نضعها في صناديق حافظة خالية من «الأسيد» أيضًا، وندخلها بعد تنظيفها إلى الغرفة المخصّصة لحفظ المواد».

وعن الصّعوبات الَّتي واجهها العاملون في القسم عند بداية العمل، تقول ساورفيم: «كنا في البداية فريقًا صغيرًا، وكانت لدينا مسؤوليات أخرى غير الأرشيف، وكذلك كانت هناك صعوبات لناحية تأمين الميزانية، فكان الأمر مكلفًا. مثلًا، ابتعنا للغرفة المبردة آلة تبريد خاصّة تعمل ليلًا نهارًا، ووضعنا في الغرفة أضواء من نوع «ليد» (LED، وهي اختصار لـlight-emitting diode، أو الصّمام الثنائيّ الباعث للضوء)، ورفوفًا خاصّة لا يطالها الصدأ».

وتلفت إلى أنّ قسم الأرشيف «لا يقوم بترميم المواد أو الكتب، بل يرسلها إلى «جامعة الكسليك» الّتي تتولى ترميمها»، مضيفةً: «كنا في البداية نعمل على الأرشيف الورقي، حيث أنشأنا قاعدة بيانات للصّور، ولم تكن هناك صعوبات بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنَّ العمل كان يستغرق وقتًا لتطوير هذا الأرشيف، لأنّ لدينا كمية كبيرة تتمثل بعشرة آلاف صورة، وكنّا نفهرس الأوراق الخاصّة ورقة تلو أخرى،

ثم نقوم بالـ «سْكَان»، ونضعها في الورقة الحافظة، ثم نضع مجموعة من الأوراق في ملفّ من نوع «إكسل شيت»، أو ورقة عمل مخصّصة للاحتفاظ بالبيانات ومعالجتها، ويتمّ تدوين كلّ المعلومات عنها، مثل الكلمات المفتاحية والمحتويات. والآن مشروعنا مستمرّ».

يعتزم القسم تطوير قاعدة البيانات الخاصّة بأرشيف الصّور، كما تفعل المكتبات، وذلك بفهرسة كلّ صورة، كما يعمل على برنامج OLIP (برنامج معلومات خاصّ بالمكتبة)، فكلّ المعلومات عن الأوراق الخاصّة يتمّ إدخالها إلى OLIP، الّذي تستعمله حاليًا مكتبة الجامعة اللبنانية-الأميركية.

وفقًا لساروفيم، فإنّ «هناك معلومة عن كلّ صورة، والمنطقة الّتي التقطت فيها، والعدد الموجود منها، والمصوّر الّذي التقطها، والموضوع الذي تتناوله الصورة. كلّ هذا سيجري تطويره، وسنضيف «ديجيتال أي دي» (رقم تعريف مرقمن)، ليصبح على نسق «مكتبة الكونغرس»، وهو جهد يتولاه الفريق نفسه العامل في قسم الأرشيف في المؤسَّسة، وسيساهم في تسريع العمل، وتحديدًا استرجاع الصورة».

وتردف قائلة: «يستخدم العاملون في القسم برنامجًا داخليًا اسمه OLIP WORD VIEW لفهرسة الكتب، وهو برنامج متكامل نجده سهلًا ومساعدًا لنا، نستطيع أن نطلب من خلاله كتبًا ونسجّل دوريات، وهو أيضًا سهل بالنسبة إلى الباحث الذي يستطيع القدوم إلى المركز واستخدامه».

يتولى عامل في القسم أعمال التنظيف (للمواد)، وكلّ وثيقة نضعها في ورقة حافظة خالية من «الأسيد» على قياسها، ثم نضعها في صناديق حافظة خالية من «الأسيد» أيضًا، وندخلها بعد تنظيفها إلى الغرفة المخصّصة لحفظ المواد

وتوضح ساروفيم أنّ الخدمات الّتي يقدّمها المركز للباحثين «تتمّ عبر برنامجOLIP WEB3 خارجيّ يراه الباحث كفهرس إلكتروني على موقع المؤسَّسة على الإنترنت، ويقوم بالبحث من خلاله، فيحصل فقط على معلومات «بيبلوغرافية» (قائمة المراجع) عن نصّ يريده، وليس كلّ النصّ، إذ عليه أن يقصد المركز للحصول على كامل النصّ كخدمة مدفوعة. وفي المستقبل، قد تصبح بعض الأوراق الخاصّة بالمؤسّسة متاحة للعامة من الناس». وتساعد المكتبة أيضًا في تزويد موقع المؤسّسة على الإنترنت بجزء من الملفات المنشورة عليه، كملف «المسجد الأقصى» الّذي أنجزته.

وتجد ساروفيم أنّ فهرسة الصّورة «تتطلّب جهدًا أكبر. كنا نستخدم الكلمات المفتاحيَّة لفهرستها، وسنطوّر ذلك إلى استخدام «سابجكت هيدينغز» (رؤوس المواضيع)، ونرفقه بنص (text)، وملاحظات (Notes)، لتدلّ مثلًا على أيّ كتاب أُخذت منه الصورة. وطرق البحث عن النصّ تكون باسم المؤلّف أو بالموضوع أو برقم الصنف (class number)، أو باسم الناشر، ونستعمل نظام «ديوي» (وهو نظام مُخَصص للبحث في الأرشيف)».

يقدّم المركز خدمات أرشيفيَّة حسب الطلب، فهناك «سياسة للصّور»، كما تسمّيها ساروفيم، إذ «لا يحقّ طلب أكثر من خمس صور، ونطلب بدلًا ماليًا عن كلّ صورة قيمته مئة دولار أميركي»، كما يجب أن «تنسب الصّورة إلى مصدرها «مركز الدراسات الفلسطينية»، وهناك نوع من الاتفاق يوقّع عليه طالبو الصورة وتوافق عليه الإدارة وترسله إليهم. فهذه الصّور الّتي تملكها المؤسَّسة، كانت قد اشترتها، وبالتالي تملك حقوقها، مثل مجموعة المصوِّر خليل رعد، وهي أهم مجموعة للصّور لدينا من سبعينات القرن الماضي».

تضرب ساروفيم مثلًا هو كتاب «قبل الشتات»، الذي «اطَّلع عليه كثر من الناس وأرادوا صورًا منه، «فيقوم المركز بتقديم الصّورة، حيث نقوم بـ «سْكَان» لها، ثم نرسل إليهم نسخة إلكترونية منها، اعتمادًا على الوضوح الّذي يطلبونه للصّورة. أما الأوراق الخاصّة، فيحتاج الباحث إلى إذن من الإدارة ليطّلع عليها».

ومن خارج المركز، «يُردف بعض الأشخاص أرشيفه بأوراق خاصّة وصور جديدة، وأحيانًا يأتي أشخاص بكتب خاصة بهم إلى المؤسسة، وقد نأخذها تبعًا للمساحة المتوافرة لدينا»، تقول ساروفيم.

وتضيف: «تأتينا صحف عبرية قديمة مثل «هآرتس» و«جيروزاليم بوست»، وكذلك لدينا مجموعة «كولونيال أوفيس» (COLONIAL OFFICE أو وزارة المستعمرات) بين عامي 1918 و1948، وهي تتضمّن كل مراسلات وزارة المستعمرات البريطانية آنذاك، ومراسلات دبلوماسية أخرى، وكلّها موجودة على «مايكروفيلم»، وهي متاحة لمن يريد الاطّلاع عليها».

يحصل أحيانًا تبادل هدايا ومنشورات بين المركز وجامعات ومؤسَّسات، فوفقًا لساروفيم، «ليس كلّ شيء يتمّ شراؤه، ويوجد تعاون مع مؤسَّسات أخرى متخصّصة بالأرشفة، مثل مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت الّتي تستشيرها المؤسّسة. وهناك تعاونٌ أيضًا مع «المؤسّسة العربيّة للصّورة»، ومع «جامعة الكسليك» أيضًا، التي تملك اسمًا كبيرًا لتخصُّصِها في رقمنة المواد. وهذه الاتفاقات مع المؤسَّسات هي اتفاقات محدّدة بوقت معين تنتهي بانتهائه». كما تؤكّد ساروفيم أنّ المؤسّسة «تشارك في ورش عمل للتطوير في كلّ من لبنان والإمارات».

حسن زراقط: صحافي من لبنان حائز على إجازة في اختصاص الصحافة، نال منحة "إراسموس موندوس" لدراسة الماجستير في اختصاص العلاقات العامة في بولندا،، عمل في عدة مواقع إخبارية.

صفحة الفايسبوك hasan.zaraket

المصادر والمراجع:

1. جانيت ساروفيم، أمينة مكتبة مركز الدراسات الفلسطينية، لها عدد من المؤلفات أبرزها: الإجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية وقرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي.
2. مكتبة جامعة الكسليك: مكتبة الجامعة، وهي معهد لبناني كاثوليكيّ، رائدة في توفير المعلومات والأرشفة وحفظ المخطوطات والتراث اللبناني.

GENÈVE

ثقافة أرشيفية

المجلس الدولي للأرشيف

آلاء هاشم

نبذة تاريخية

المجلس الدّوليّ للأرشيف هو منظّمة غير حكوميّة، تأسَّست في 9 يونيو/ حزيران 1948، في مقر اليونسكو في العاصمة الفرنسية «باريس»، إلا أن التفكير في إيجاد هيكل مماثل يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

اختيرت باريس مقرًا للمجلس، باعتبارها مقر منظمة اليونسكو الّتي تشجّع على قيام منظّمات غير حكومية، وقد تأسَّس فيها المجلس الدولي للأرشيف من قبل مجموعة من الخبراء. انعقدت جلسته العامة في العام 1950 في مقرّ اليونسكو. في البداية، كان يضمّ مسؤولي الأرشيفات المركزيّة في البلدان الأكثر تقدّمًا، ثم انفتح شيئًا فشيئًا على ممثّلي الأرشيفات الأخرى في مختلف بلدان العالم، إذ يجمع الجمعيات المهنية والأرشيفيين المهتمّين بالبحث والتطوير وإتاحة الخبرات في الميدان، والذين يهدفون إلى تطوير التراث الأرشيفي العالميّ وحفظه وتنميته والاطّلاع عليه. ويجمع المؤسَّسات الوطنيّة للأرشيف، والجمعيات المهنيّة للأرشيفيين والأرشيفات الإقليمية والمحلية، وأرشيفات الهياكل العموميّة والخاصّة، كما يضمّ أرشيفيّين بصفتهم الشخصية.

شركاء المجلس الدّولي للأرشيف

يتعاون المجلس الدولي للأرشيف بشكل وثيق مع المنظّمات غير الحكوميَّة ذات الأهداف المشتركة، ولا سيما الاتحاد الدولي للمكتبات (IFLA)، والمجلس الدولي للمتاحف (ICOM)، والمجلس الدّولي للآثار والمواقع (ICOMOS).

في العام 1996، انضّم المجلس الدولي للأرشيف إلى الأعضاء المؤسّسين للجنة العالميّة للدرع الأزرق، التي تلعب دورًا أساسيًا في حماية الممتلكات الثقافية المهدّدة من الحروب والكوارث الطبيعية. كما انضّم إلى عضوية المجلس التنسيقي

للأرشيف السمعي والبصري، ويعمل كمستشار لبرنامج اليونيسكو «ذاكرة العالم».

مهمّة المجلس الدّوليّ للأرشيف

يؤكّد المجلس الدّوليّ للأرشيف أهميّة تنظيم الأرشيف وإدارته، بالنسبة إلى صنّاع القرار وعامّة الناس في مختلف أنحاء العالم، من خلال مجموعة من الطرائق:

1. أعدّ المجلس الدّوليّ للأرشيف إعلانًا عالميًا للأرشيف، يشرح أهميّة حفظ الأرشيف وتنظيمه في القرن الواحد والعشرين. تُرجم إلى مجموعة من اللغات، وتم توفير نسخة إلكترونيّة منه. وتم قبوله من اليونيسكو في 10 نوفمبر 2011.

2. أنشأ المجلس الدّوليّ للأرشيف دليلًا إرشاديًا يديره مجموعة من الخبراء في عالم الأرشيف، ويتضمَّن مجموعة من المبادئ التوجيهية حول أفضل الممارسات والأدوات الهادفة إلى تحسين إدارة الوثائق في مختلف أنحاء العالم وحفظها وتنظيم موضوع الاطّلاع عليها.

3. يُمَوِّلُ المجلس الدولي للأرشيف من خلال صندوق التنمية الدولية للمحفوظات، وهو صندوق مخصَّص لدعم أرشيفات الأعضاء في البلدان النامية، برئاسة مجلس مؤلّف من أعضاء من جميع أنحاء العالم.

4. يقدّم المجلس الدولي للأرشيف التدريب والتعليم المستمرين، لمساعدة الأرشيفيين على التكيّف مع تحدّيات البيئة الإلكترونيّة.

5. ينظّم المجلس الدّوليّ للأرشيف مؤتمرات سنوية حول أهمّ الموضوعات الأرشيفيّة، فضلًا عن المؤتمر الدولي الأساسي الَّذي يُعقد كلّ أربع سنوات حول الأرشيف.

6. ينشر المجلس مجلّة متخصصة (كوما)، ونشرة معلومات نصف سنوية (فلاش)، ونشرة إلكترونية شهريّة.

7. يتيح المجلس الدّوليّ للأرشيف موقعًا إلكترونيًا على شبكة الإنترنت www.ica.org، يمكن الاطّلاع من خلاله على مسؤوليات المجلس ومهامه، ويمكّن الأعضاء من الوصول إلى المحتوى التخصّصي.

هياكل المجلس الدّوليّ للأرشيف

المؤتمر الدّوليّ للأرشيف: يجتمع كلّ أربع سنوات مرة في المكان والزمان اللّذين تحدّدهما الجلسة العامة.

الجلسة العامّة: تجتمع سنويًا في الحالات العادية، ويمكن أن تجتمع استثنائيًا بدعوة من الرئيس واللّجنة التنفيذيّة، أو بدعوة من ثلثي الأعضاء من مؤسَّسات وجمعيّات. وتضمّ ممثّلي المؤسَّسات والجمعيّات، والمسؤولين المنتخبين، وأعضاء اللجنة التنفيذيّة، ومكتب النّدوة الدّوليّة للمائدة المستديرة للأرشيف، والسّكرتير العام ومساعده.

تضبط الجلسة العامّة التوجّهات الاستراتيجيّة للمجلس، وتنظر في الأمور المتعلّقة بإدارته وبأنشطته، وتصادق على تقرير الرئيس حول أنشطته، وتسمّي السكرتير العام واللجنة التنفيذية، وتستمع إلى التقرير المالي الذي

يقدّمه نائب الرئيس، وتصادق على الحسابات التي يراجعها خبير محتسب، وتصوّت على الميزانية، وتقرّر بخصوص اشتراك العضوية، وتوافق على التغييرات على القانون الأساسيّ.

ويرأس رئيس المجلس الاجتماعات والجلسة العامّة والمكتب والندوة الدولية للمائدة المستديرة للأرشيف.

اللجنة التنفيذيّة: تتألّف من المكتب، ورؤساء الفروع، ورؤساء الأقسام الَّتي يتبعها أعضاء من أربعة فروع على الأقل. وهي مسؤولة عن سير السياسات والبرنامج المصادق عليها من قبل الجلسة العامة، وهي التي تسمّي السكرتير العام ومساعده أو مساعديه، والمسؤول عن الانتخابات، وأعضاء مجلس الإدارة للرصيد الدولي لتنمية الأرشيف (FIDA).

مكتب اللّجنة التّنفيذيّة: يتكوَّن من رئيس الندوة الدولية للمائدة المستديرة للأرشيف ونائبه، ونائب رئيس المؤتمر، ونائب الرئيس المكلّف بالمالية، ونائب الرئيس المكلف بالتسويق والتطوير، ونائب الرئيس المكلف بالبرنامج، ونائب الرئيس الممثل للجمعيات، ونائب الرئيس الممثل للفروع الإقليميّة، ونائب الرئيس الممثّل للأقسام، ورئيس فرع إقليمي، والسكرتير العام ونائبه. وهذان الأخيران ليس لهما الحقّ في التصويت. والمكتب مسؤول عن كلّ المسائل التي فوَّضتها إليه اللجنة التنفيذية، وهو مكلَّف بتحضير اجتماعات اللجنة التنفيذيَّة، ومتابعة القرارات الصّادرة عنها.

النّدوة الدّوليّة للمائدة المستديرة للأرشيف (CITRA): تجتمع سنويًا بهدف التّداول في مسائل استراتيجيّة ومهنيّة كبرى. ويتألّف مكتب هذه النّدوة من نائب رئيس مكلّف بالنّدوة، ونائب رئيس مكلّف بالمالية، وسكرتير عام مساعد يقوم بسكرتارية الندوة، وستة أعضاء منتخبين، من بينهم أربعة من الفروع الإقليمية الأربعة. ويتولى هذا المكتب تنظيم النّدوات السّنويّة وبرنامج الندوة، ويقوم بإعداد القرارات والتوصيات للجلسة العامة بالتشاور مع لجنة البرنامج.

أعضاء المجلس الدّوليّ للأرشيف

يضم المجلس الدولي للأرشيف ما يزيد عن 1400 مؤسَّسة عضو، وأفراد أعضاء مما يقارب 199 بلدًا وإقليمًا، وأكثر من 200 أرشيفيّ بصفتهم الشخصيَّة.

وضمن اهتمام مركز أوال للدراسات والتوثيق بحفظ الذاكرة البحرينية وتنظيمها وإدارتها، انتسب مؤخرًا إلى المجلس وأصبح أحد أعضائه.

فروع المجلس الدّوليّ للأرشيف

المجلس الدّوليّ للأرشيف هو منظّمة لامركزية تسيّرها الجمعيّة العامة وتديرها لجنة تنفيذيّة. تشكّل فروعها منتديات إقليمية للأرشيفيين في مختلف بلدان العالم، وتضمّ أقسامها أرشيفيين ومؤسَّسات في ميادين مهنية مختلفة. وتهتمّ سكرتارية المجلس بإدارة المنظَّمة، وتربط بين أعضائها، وتعنى بالتفاعل بينهم وبين الهياكل والمنظَّمات الدّوليّة الأخرى.

· أقسام مختلف المصالح الأرشيفيَّة: أرشيفات المدن، أرشيفات البرلمانات، أرشيفات الشركات، أرشيفات الجامعات، أرشيفات المنظّمات الدّولية...

· فروع إقليميّة: هذه الفروع هي التالية:

- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول جنوب شرق اسيا « ساربيكا» مقره كوالالمبور/ ماليزيا.
- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول شرق ووسط افريقيا «ايكا ربيكا» مقره نيروبي/ كينيا.
- الفرع الاقليمي العربي للمجلس الدولي للوثائق للدول العربية «اربيكا» مقره بغداد/ العراق.
- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول البحر الكاريبي « كاريبكا» مقره جواديلوب.
- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول امريكا اللاتينيه» الابيكا» مقره ليما / بيرو.
- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول جنوب غرب اسيا «سواربيكا» مقره بيودلهي/ الهند.
- الفرع الاقليمي للمجلس الدولي للوثائق لدول غرب افريقيا « واربيكا» مقره داكار/ السنغال.

يقوم المجلس، بواسطة شبكة فروعه، بتبادل المبادرات المشتركة على مستوى إقليمي وإطلاقها. كما أطلق أقسامًا في مختلف الميادين المهنية، بهدف التشجيع على البحث وتبادل المعلومات في ميادين متخصّصة، وتضم هذه الأقسام الجمعيات المهنية والأرشيفيين العاملين في المنظّمات الدولية والبلديات والمؤسَّسات والنقابات والكنائس والجامعات والبرلمانات والأحزاب السّياسيّة...

العمل في المجلس الدّوليّ للأرشيف

ينسّق المجلس الدّوليّ للأرشيف أعماله من خلال تعاون 13 فرعًا إقليميًا يمثّل مختلف القارات، و12 فرعًا مهنيًا يجمع بينهم وحدة المصالح والأهداف المماثلة، وفرق العمل من المجلس التي ترتكز على تنفيذ أهداف ومشاريع محددة، ومن خلال عمل الأعضاء المتطوّعين في المجلس، الذين يكرسون أوقات فراغهم في تقديم خبرتهم ومهاراتهم.

جميع هذه المبادرات هي جزء من استراتيجية المجلس في خطة عشرية تمتد من العام 2008 إلى 2018، بغية الحصول على رؤية عالمية حول مستقبل المحفوظات.

آلاء هاشم: اختصاصية أرشيف من لبنان، بكالوريوس في علم الأرشيف والمكتبات، تعدّ رسالة ماجستير حول تفحّص المعايير المعتمدة لبناء المواقع الإلكترونية للمكتبات الجامعية. سكرتيرة تحرير مجلة أرشيفو.

صفحة الفايسبوك alaa hachem

كيف يصنع الأرشيف التّاريخ؟

غنى مونّس

لطالما كان هناك تساؤلات عن أدوار الأرشيف؟ فيم يفيد؟ وما هي أبرز أسباب احتياجنا إليه؟ وفي هذا السّياق، تنوعت الأجوبة وكثرت الفرضيات، وخلص بعضها إلى نتيجة مفادها: لا بد من الأرشيف لكتابة التّاريخ، ويؤكد نابليون بونابرت ذلك بقوله: «الأرشيف الجيد أكثر أهمية في نظر الدّولة من جنرال في الجيش»، وكيف لا؟ وهو يوثق إنجازاتها ويحمل لسان حالها إلى الأجيال اللّاحقة.

الأرشيف عالم أيضًا، له محدداته، فهو يشغل مساحة كبيرة، ولا يمكننا الوصول إليه من دون إذن أو ترخيص. والعودة إلى الأرشيف هي عودة إلى الجذور.

ما الذي يجعلنا نناقش الأرشيف من هذه النّاحية؟ لا بد أن الأمر يتعلق بطابعه، ومكوناته وطريقة عمله .

يقول الأستاذ عزيز سعيدي في مقال له بعنوان «الأرشيف وأهميته في كتابة التّاريخ» إن «التّاريخ يُصنع بالوثائق» وأنه من «من دون وثائق ليس هناك تاريخ». وتثير انتباهنا هنا كلمة خاصة: «يُصنَع».... إذ إنه لم يقل «بالأرشيف يُدّون أو يُسَجّل التّاريخ».

الأرشيف عالم أيضًا، له محدداته، فهو يشغل مساحة كبيرة، ولا يمكننا الوصول إليه من دون إذن أو ترخيص. والعودة إلى الأرشيف هي عودة إلى الجذور.

لماذا كلمة «يُصنَع»؟ لأنه، حتى إن وُجِدت الوثائق، يجب أخذ الحيطة والحذر في التّعامل معها، وذلك بسبب وجود مجموعة من الضّوابط التي تحكمها.

في مقال لها على بوابة البحث بيرسي Persée حول الأرشيف والتاريخ، قالت آرليت فارج إن الوثيقة، المُكَوّن الأساس للأرشيف، هي بالنّسبة للمؤرخ الأداة التي يلجأ إليها للتّواصل مع الماضي. فهي وسيلة للعبور إليه، ومن خلال الأرشيف وحده، نستطيع إعادة خلق أحداث التّاريخ، واستحضار مكوناته.

وبتحليلها لطريقة عمل الأرشيف في صنع التّاريخ، وجدت فارج أنه بدءًا من حفظ المخطوطات، التي حملت آثار المؤلفين، وترددات أفكارهم، إلى عملية نسخ الوثائق، لحفظها، أو نسخ أجزاء منها ووضع ملحوظات وملخصات عليها، حفاظًا على عامل الوقت، تلاشت عملية الأرشفة التي تأتي في نطاق عملية رسم للكلمات، مع التّطور التّقني، الذي نشهده في عصرنا الحالي، وأشارت إلى أنّه ينبغي مراعاة الإطار الذي يتمركز فيه هذا الأرشيف، والأمر بديهي: «ليس بإمكاننا إعادة إحياء الأموات الذين يتكلم عنهم»... من هنا، رأت فارج أنه يجب مساءلة الأرشيف من خلال التّنصل من طابعه المرتبط بسرد الحقيقة: العمل على النص المروي، والتّنبه إلى ما يُفلِت من هذه الرواية، وبالتّالي، تصور رواية لا تمحو ما سبق، وتحفظه إلى أن تبرز، في يوم ما، رواية أخرى مستقاة من الأحداث نفسها، التي وثقها الأرشيف.

هنا، يبدو ما تشير إليه الباحثة جليًا، إذ يمكن إيجاد عدة روايات استنادًا إلى المجموعة نفسها من الوثائق، وتختلف كل من هذه الروايات عن الأخرى لاختلاف رؤية وتحليل واستنباط المؤرخ الذي يعمل عليها.

في تطرقها إلى هذه المسألة كتابة التّاريخ، وجدت فارج أنّ «مسألة الكتابة خطيرة بالنّسبة للمؤرخ، في حال أراد قولبة التّاريخ وتأطيره من تخيله لما كان يمكن أن يحدث»، وهي [أي مسألة الكتابة] تصبح «حرجة بين حاجتها إلى خلق معنى من خلال رواية مترابطة ويقينها بأنه لا يجب تَشْبِئَة أي قضية»، عندها، «تحاول الكتابة إيجاد نفسها بين الذّكاء والمنطق والشّغف والفوضى».

وأكدت فارج في هذا الإطار أنّه «على الكتابة أن تجد نفسها بعيدًا عن التّحليل. فنحن لا نحلل الأرشيف، بل نسائله في المسافة بين النّفس والكتابة، وهذا أمر جديد»، ففيه [أي الأرشيف]، «لا نكتشف معنى العالم، بل صورًا جديدة للتّأويل».

فارج وجدت أيضًا أن «الكلمة حدث بحد ذاتها»، ففي «تلك الخطابات، التي صمدت على الرّغم من الخوف والخجل أو الكذب، نجد حدثًا، لأن التّعبير يحمل في طياته محاولة ترابط نابعة من إرادة المتكلم، وهذه المحاولات توجد حدثًا: فمحتوى الخطابات يعرض عالَمًا منظمًا ذا منطق مدهش وبلاغة قادرة على الإقناع».

«الكلمات نوافذ»، غير أنه يمكن «لزجاج هذه النّوافذ أن يكون سميكًا»، و«الكلمات قد تؤلف شيئًا جديدًا، مختلفًا عن البقية»، وقد «تتطلب أمورًا تقاوم الأنماط»، و«في هذه المقاومة، نجد ما نتفكر فيه»، هذا ما أوضحته فارج، لتدعو «المؤرخ» إلى «الكلام من دون أن يمحو خشونة هذه الآثار، وما لا ترويه في طياتها»، إذ إن

الحدث التّاريخي يكمن أيضًا في بروز أمور متفردة ومتناقضة، تؤلف فيما بينها مجموعة من الأمور المنطقية ولكن غير المتشابهة، التي قد تتصادم أحيانًا مع بعضها البعض.

فارج رأت في الوقت ذاته أنه يمكن بهذه اللّغة التي تأسر كلمات الآخرين، إنشاء موضوعات التّاريخ، وفي الوقت ذاته، نصبح «نحن أنفسنا مأخوذين بتلك الموضوعات».

«الأرشيف يُكَوّننا، كموضوع، في حال استبعدنا فكرة أنه أداة نستخدمها»، غير أنه في الواقع شيء آخر، وفقًا لفارج... «إنه أكثر من تناقض، حين نعلم، أنه بين الأرشيف وبيننا، تمتد قرون وقرون»، غير أنه، في السّياق الذي نتناوله هنا، «لا تمثل القرون أمرًا ذي أهمية».

غنى مونس: باحثة ومترجمة وأستاذة جامعية من لبنان. تعمل أيضًا في مجال الصّحافة الإلكترونية. تعد رسالة ماجستير في الإعلام والتواصل في الجامعة اليسوعية في بيروت

صفحة الفايسبوك ghina.mns1

المصادر والمراجع:

للمزيد من المعلومات، انظر الدّراسة التي أجرتها المؤلفة والباحثة الفرنسية آرليت فارج بعنوان «الأرشيف، أداة للتّواصل ولصنع موضوع تاريخي. سفر في الأرشيفات القضائية للقرن السابع عشر»،

http://urlmin.com/4r7fc

آلية التّصوير المصغر:
أساليب حفظ المصغرات الفيلمية

في العدد السابق، تناولنا موضوع التّصوير المُصَغر: كيف بدأ؟ وكيف تطور مع الزّمن؟ كما أشرنا إلى أهميته في تسهيل تبادل المعلومات والإحاطة بها وحمايتها من السّرقة والإتلاف وغيرها من الأخطار. وتطرقنا إلى المصغرات الفيلمية وأنواعها ومراحل إعدادها.

للإحاطة بهذه التّقنية على نحو أوسع، كان لا بد لنا من إطلالة في هذا العدد على الوسائل التي يمكن من خلالها حفظ المصغرات الفيلمية، خاصة مع تعرضها لخطر العوامل الطبيعية والبشرية التي قد تؤدي إلى تلفها.

أساليب حفظ المُصَغرات الفيلمية:

تحتاج المصغرات الفيلمية الى أساليب وطرق خاصة وعالية الجودة بهدف حمايتها من العوامل الطبيعية والبشرية التي قد تفتك بها كليّا أو جزئيًا، ومن بين الأساليب الواجب اتباعها لحفظ المصغرات الفيلمية، نشير إلى التّالي:

- وجوب وضعها في غرف خاصة لحمايتها من الأخطار المختلفة.
- حفظها في خزائن خاصة محكّمة الإغلاق، بحيث لا يمكن للحرارة أو الرطوبة أو بخار الماء أو الغبار أو الأتربة أو القوارض أو النار الوصول إليها.

ومن أهم الأخطار التي تتعرض لها المصغرات الفيلمية العوامل الآتية:

- الحرارة والرطوبة العالية: يجب أن تُحفَظ المصغرات الفيلمية بعيدًا عن جميع المواد التي تشّع منها درجات حرارة عالية، وتَحفظ المصغرات في درجة حرارة معتدلة، حيث إن درجة الحرارة المنخفضة تؤدي الى كسرها، ودرجة الحرارة المرتفعة تجعلها هشّة. كما يجب أن تكون درجة الحرارة ثابتة إذ إنّ عدم استقرارها يؤدي الى تلفها.

أمّا في ما يخصّ الرطوبة، أي نسبة بخار الماء في الهواء، فيجب أن تكون درجتها متوسطة لحماية المصغرات، حيث إن درجة الرطوبة العالية تجعل الأحماض تتفاعل فيها ، بل قد تلتصق الشرائح الفيلمية ببعضها البعض، وقد يؤدي ذلك الى نمو العفن على سطح الميكروفيلم وإتلاف الصورة، وعندما تقلّ الرطوبة النسبية لمدة طويلة يصبح الفيلم عرضة للجفاف والالتواء وذا قابلية للتقصف.

- الماء: يجب إبعاد المصغرات الفيلمية عن الماء لأنه من العوامل الأشد خطرًا، إذ تنجم مشاكل كثيرة عن تكاثف بخار الماء العالق بالجو على السطح المُعَرّض من جسم الفيلم، وهذه مشكلة من مشكلات الحفظ.
- الحريق: قبل العام 1950، كانت المصغرات الفيلمية تُصنع من مادة نترات الفضة القابلة للإشتعال، وللتحلل ببطء خلال فترة زمنية معينة. وبعد هذا التاريخ، تمّ القضاء على هذه المشكلة، حيث أصبح الفيلم يُصنع من قاعدة بلاستيكية مستخلصة من مادة السليلوز. وهناك اليوم نوع من الأفلام مصنوع بطريقة تقاوم الحريق في درجات حرارة عالية نسبيًا، ولكن لمدة محدودة.
- سوء الاستخدام: يؤدي سوء استخدام المصغرات الفيلمية الى تلفها، ومن الأمثلة على ذلك: عدم لف الفيلم بصورة صحيحة داخل البكرة، ما يؤدي إلى تلف النتوءات الموجودة على حافتي الفيلم. ويجب التأكد من سلامة أجهزة العرض الخاصة قبل استعمالها لكي لا تتلف المصغرات الفيلمية.
- بصمات الأصابع: يفضّل استعمال القفازات عند التعامل مع المصغرات الفيلمية وذلك لمنع آثار البصمات، وذلك لكون البصمات ذات تأثير كبير ومدمّر أحيانًا، إذ تتفاعل مع المحاليل المستخدمة في معالجة الفيلم.

- الغبار والأتربة: يجب مراعاة النظافة والعناية التامة عند استعمال المصغرات الفيلمية وعدم السماح للغبار والأتربة بالوصول إليها، وذلك من خلال وضعها في صناديق وخزائن وغرف محكمة الإغلاق، لا يصلها الغبار مهما كان مصدره (سواء من داخل المكتبة أو من خارجها). كذلك يجب حماية المصغرات الفيلمية من أخطار الغازات الضارة مثل غاز ثاني أكسيد الكربون وغيره، ومن الضوء الصناعي أو الطبيعي العالي، ومن المجالات المغناطيسية العالية، وغيرها من العوامل التي قد تؤثر على المصغرات الفيلمية.

الجدير ذكره أنّه على الرّغم من صعوبة هذه الأساليب، والعناء الذي تسببه، إلا أنها تتلاشى أمام أهميتها، والدّور الذي تلعبه في عملية الحفظ، وتبقى هذه الأساليب عوامل أساسية ومهمة لحفظ المصغرات الفيلمية التي تكمن أهميتها في اختصار الوقت، والاقتصاد في المساحة المكانية وسرية وأمانة المعلومات وإمكانية استرجاعها عند الحاجة، وكذلك إعادة نشرها بعد النّسخ وسهولة نقلها من مكان إلى آخر.

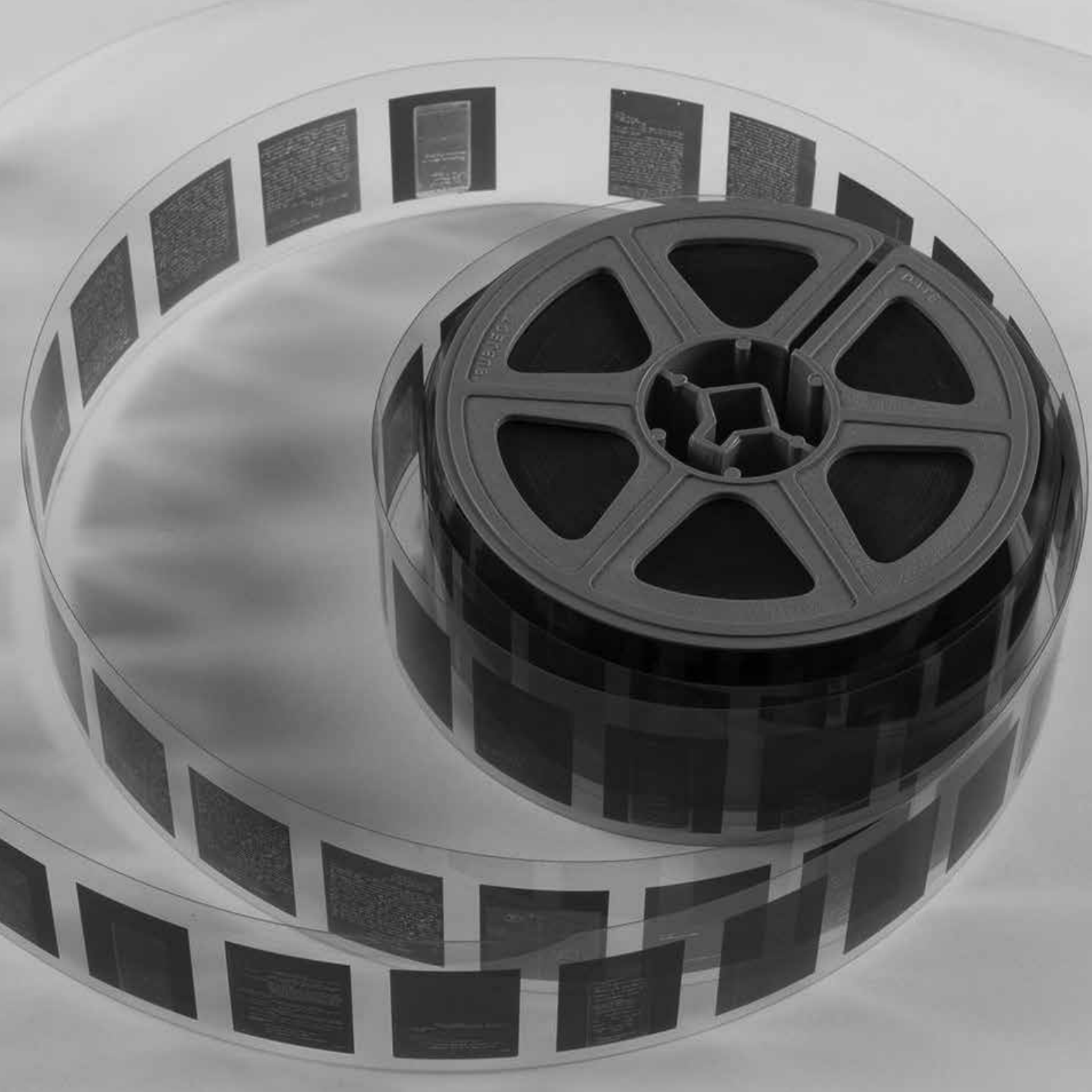

only been possible to allocate a very

The possibilities of a loan were discussed

season the chances of raising it were

I have the Honour to be

Sir,

Your obedient servant.

C Dalrymple Belgrave

Financial Adviser to
the Government, Bahrain.

Budget-1933.

Expenditure.

I.	Allowance to Ruling Family Civil List Pensions Allowances for religious festivals		
II.	Tutor to Ruling Family		
III.	State Protection-. Indian Police and Jail Equipment Natura Deportations Lighting		Rs. 11 5
IV.	Other Departments-. Customs Department Secretariat Land Department Judicial & Wakafs Passport Department	Rs.	62,000/ 30,000/ 28,000/ 32,000/ 5,000/
V.	Public Education		
VI.	Medical Department		
VII.	Contingencies, Stationery, Printin		
VIII.	Electric Supply		
IX.	Public Works-. Repairs to roads " " bldgs. Upkeep Gardens	Rs.	6600/- 3000/- 2400/-
X.	Municipalities, including tobacco and motor tax		
XI.	Muharrak Sea Road		
XII.	Manamah-Muharrak Road		
XIII.	Unforseen expenditure		
XIV.	Compensation in cases etc.		
XV.	Agriculture, wells etc.		
XVI.	Customs Crane		

وثيقة وحكاية

التعليم وميزانيات البحرين في عهد بلجريف

د. محمد السلمان

مذ زار اللورد كيرزون (George Nathaniel Curzon) دول الخليج، ومن بينها البحرين، في أواخر العام 1903، بدأ بالتفكير جديًا في إجراء إصلاحات إدارية في «مشيخات» الخليج البعيدة تمامًا عن نواحي المدينة الحديثة، والتي يغلّف أنظمتها غبار القرون الوسط. هذا ما حدث في البحرين. ونحن في هذا المقال، سنتناول هذه الفكرة من خلال إلقاء الضوء على الوثائق البريطانية التي صدرت في القرن العشرين.

تمّت تلك الإصلاحات بداية بتغيير الوكلاء السابقين لبريطانيا في البحرين ذوي الموطن الخليجي، إلى وكلاء، أصبح يُطلق عليهم «مُعتمدين» فيما بعد، من القادة العسكريين البريطانيين. وكان النقيب ديكسون (Harold Richard Patrick Dickson) أهم شخصية، إذ بدأت حركة الإصلاحات الإدارية على يديه في البحرين، وإن كانت بطيئة في شكلها الأول، كمقدمة لوضع البحرين على أول قضبان سكة الدولة الحديثة. ثم كانت الحركة الإصلاحية الإدارية التحديثية الكبرى على يد الرائد (كلايف ديلي) بعد العام 1920.

وفي العام 1922، بدأت وزارة الخارجية في لندن اعتماد سياسة مباشرة في ما يتعلق بتحويل مسار الإدارة العتيقة السائدة في البحرين، إثر بروز معارضة واضحة لعملية التحديث من بعض الفئات المتضررة بشكل مباشر منها. ففي تاريخ 7 ديسمبر من تلك السنة، صدرت رسالة واضحة وصريحة عن خارجية حكومة الهند البريطانية، جاءت عباراتها على هذا النحو: «نودّ التعبير عن خالص أملنا في أن يتمّ اتّخاذ الخطوات الفورية

لإدخال الإصلاحات في البحرين، من أجل ضمان المعاملة العادلة للشيعة»[2]. طبعًا، هدف التحديث ليس طائفة دون أخرى، ولكنه كان مدخلًا سياسيًا بريطانيًا لولوج هذا التحديث بشكل من الأشكال. وما رفع المظلومية عن هذه الفئة إلا عنوانًا بارزًا صبغ تلك الفترة.

ويُعتبر كل من (ديلي)، ومستشار حكومة البحرين لاحقًا، (تشارلز بلجريف)، هما من تم على عاتقهما تحديث البحرين على منهج السياسة البريطانية في منطقة الخليج والهند؛ تحديث تحت سلطات الحماية البريطانية، وليس بعيدًا عنها أو متمتعًا بميزة الطابع والاختيار الشعبي الحر. وفي عهد هذين الرجلين، بدأت تظهر ميزانيات سنوية للبحرين، فيها وارد وصادر، وأرقام هناك وهناك حول العائدات والنفقات الحكومية وغير الحكومية.

هكذا ولدت الإدارة الحديثة في البحرين مطلع القرن العشرين. ولن نبحث الآن في تفاصيل هذا الموضوع، فلنا معه وقفة مطولة ذات يوم، إلا أننا سنقف فقط عند بعض أرقام ميزانيات تلك الفترة المبكرة في الخليج، من خلال نموذج تطوير البحرين وتحديثه، والذي سعت بريطانيا إلى تعميمه على بقية «مشيخات» الخليج فيما بعد، وبالتحديد ما يشير منها إلى أرقام ميزانية التعليم، وهو أهم عنصر في تنمية كل المجتمعات الحضارية وتحديثها.

في قراءة سريعة وخاطفة لبعض البنود في ميزانية واحدة، وكانت تُكتب بالعام الهجري وليس الميلادي، وهي للعام 1349 هـ (1930م)، نجد الآتي[2]:

ميزانية العام 1349

أمن الدولة	
• الشرطة الهندية والسجن	112,000 روبية
• المعدات	500 روبية
• الحراس	53,000 روبية
• الإبعاد [النفي خارج البحرين	500 روبية
• التعليم العام	60,000 روبية
• القسم الطبي	26,400 روبية
• الطوارئ، والقرطاسية، والطباعة، وغيرها	4,000 روبية

إذًا منذ البداية، تم التخطيط والتنظير وتوجيه الدولة الحديثة في البحرين في مستهلّ عهدها بمنهجية الأمن أولًا، وبشكل مبالغ فيه، ثم تأتي بقية المجالات التنموية والتعليمية. سياسة الأمن هذه، القلقة على الوجود البريطاني في المنطقة، صبغت تاريخ التحديث في البحرين منذ الومضة الأولى، واتبعها كل من جاء بعدهم. كان ذلك برسمٍ وسياسةٍ من سلطات الحماية البريطانية على يد (ديلي) ثم مستشارها الأوحد (بلجريف)، وهو كان أساسًا عبدًا مأمورًا، لا يستطيع رسم كل السياسة بنفسه.

ففي مقارنة بسيطة بين الميزانية المخصصة للشرطة، والسجون، والحراس الليليين، وحتى حركة نفي

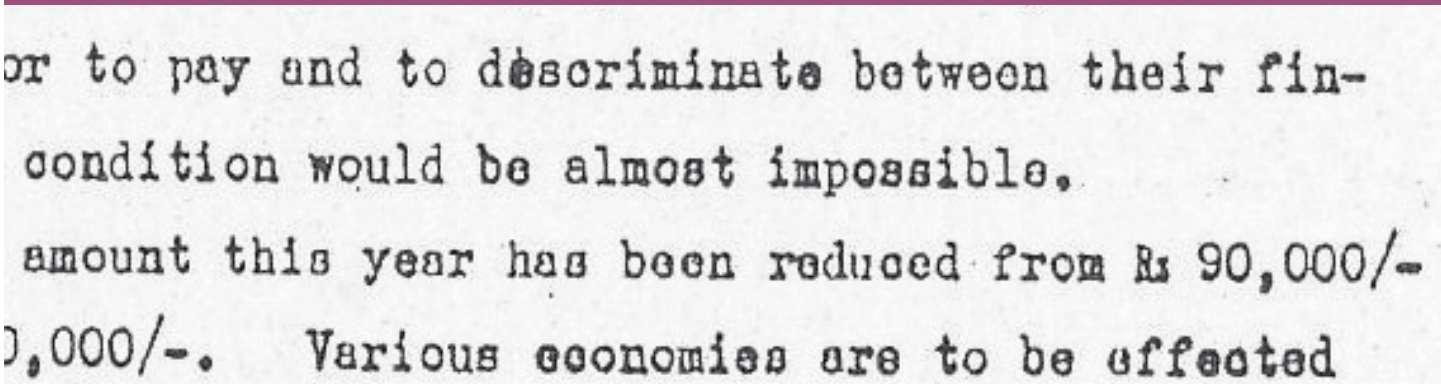
or to pay and to discriminate between their fin-
condition would be almost impossible.
amount this year has been reduced from Rs 90,000/-
0,000/-. Various economies are to be effected

الناس خارج البحرين منذ ذاك العهد! نجدها قُدِّرَت بـ 166 ألف روبية للعام 1930، بينما كان عدد أفراد الشرطة لا يتجاوز 150 شخصًا، معظمهم غير بحرينيين.

أما التعليم، وهو الأهم، فلم يحصل سوى على حوالى ثلث ميزانية الأمن، وليس عموم الميزانية، وهو رقم بسيط لم يتجاوز 60 ألف روبية لكل سكان البحرين، الذين تجاوزوا حاجز الـ 160 ألف نسمة آنذاك! ناهيك بتبذير أموال أخرى كبيرة، كرواتب ومخصصات لأفراد لا يقدمون أي عمل للدولة، كما يعترف المستشار بنفسه، ومعه المعتمدون البريطانيون كافة، في تقاريرهم.

وهكذا استمرت بنود تلك الميزانيات في التمييز بين الأمن والتعليم. وهنا ليس الأمن بمعنى حماية الناس، بل هو أمن الدولة، وهو في نظرهم حينها، أمن الحكومة التي تسوس الناس، رغم أن تلك الحكومة لم تكن تدير أمر مجموعة مجرمين حتى يتم جلب ذاك العدد من الشرطة المسلحين بالنار في العشرينيات من القرن العشرين لحكمهم، فمن المعروف خليجيًا وعند الساسة الإنجليز، أن أهل البحرين بسطاء ومسالمون على مر التاريخ، حتى وهم يُطالبون ببعض الحقوق من الحكومة، وإلا لما استطاعت كل قوة خارجية من السيطرة على بلادهم وحكمها وصبّ صنوف القهر والويل عليهم.

ولتأكيد ما نتحدّث عنه حول تلك الميزانيات في بداية النهضة الحديثة في البحرين، يكفي أن نلاحظ أنّ إيرادات الميزانية لم تكن قليلة حينها، فقد بلغت في العام 1349 هـ التالي:

الإيرادات	
الضرائب الجمركية، وتتضمن:	
• رسوم الإشراف • بيع القوالب • شهادات الشحن • رسوم التعديل • رسوم الشهادات • الخانجية • الحمالية (العاملون في الشحن) • رسوم استخدام رصيف الميناء • عائدات الضرائب	
مجموع ما سبق كلّه	**830,000 روبية**
الضرائب على السيارات ورخص القيادة	**5,000 روبية**
رخص صيد اللؤلؤ	**50,000 روبية**
تسجيل سفن الغوص	**3,000 روبية**
إيرادات متنوعة تتضمن مستحقات الميناء، وغيرها	**10,600 روبية**
رسوم جوازات المرور	**10,000 روبية**
إيرادات القضاء، ورسوم تسجيل الأراضي	**20,000 روبية**
الفائدة على إيداعات البنك الثابتة وغيرها	**19,000 روبية**
إيجارات الأراضي الحكومية، وتتضمن المطار والامتيازات النفطية	**12,000 روبية**
الكهرباء	**31,600 روبية**
القروض القابلة للاسترداد	**33,969 روبية**
الرصيد في صندوق البحرين	**26,162 روبية**
المجموع الكلي	**1,051,331 روبية**

وهنا، نورد اعتراف المستشار بلجريف نفسه في العام 1930، أي بعد حوالى عشر سنوات من بدء التعليم النظامي في البحرين، بأن الدولة «تؤمن التعليم المجاني. وقد اقتُرِحَ فرض بعض الرسوم، إلا أن ما لا شك فيه هو أن القسم الأكبر من الأهالي يرزحون في ظلّ الفقر المدقع، ولا يستطيعون الدفع، ومن المستحيل التمييز بين الناس على أساس أوضاعهم الاقتصادية. وقد تراجع مبلغ التعليم هذا العام من 90,000 روبية إلى 60,000 روبية. ستتأثر الكثير من الاقتصاديات نتيجة التغيير في رواتب المدرسين، ولن يتم افتتاح أي مدارس جديدة خلال العام»[3].

ولحكاية الوثيقة بقية...

د. محمد السلمان: باحث متخصص في التاريخ من البحرين، أعد أطروحة دكتوره في جامعة هال البريطانية حول المظاهر السياسية والاقتصادية للحكم البرتغالي في الخليج، صدرت له مجموعة من الكتب التاريخية والترجمات.
للتواصل عبر الإيميل: adoommoon@gmail.com

المصادر والمراجع:

1. Tuson, Penelope (Chief Editor), Records of Bahrain 1820–1960 (England 1993), Vol.4 (19231932-), p. 391.
2. Tuson, Penelope (Chief Editor), Records of Bahrain 1820–1960, Vol.4, p.495.
3. Tuson, Penelope (Chief Editor), Records of Bahrain 1820–1960, Vol.4, p.500

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما اولانا من ملاحم مناهج التوفيق وهدانا من مطارح
مدارج التحقيق ودلنا من مسارح معارج سوأ الطريق والصلوة على
افضل الاولين والآخرين واكمل النبيين والمرسلين محمد المصطفى و
عترته الطاهرين اجمعين اما بعد فان الله سبحانه وتعالى لما
وفقني فيما مضى من الايام والتقى زماني بيد المولى الامام الهمام سيف
الاسلام علامة الانام لسان الحكماء والمتكلمين جمال المحققين والمحققين
كمال الملة والدين ابي جعفر احمد بن علي بن سعيد بن سعادة تلقاه
الله باكمل الوفادة وتولاه بافضل الزيادة وبلغه من منازل عليين اعلى
مراتب المقربين اشار من جملة المباحث الشريفة الالهية والمسائل

كشكول

أحاديث قريتي

قرية المعامير البحرينية

عباس مزعل

الحديث نقيض القديم، كما يقولون... ولا يبعد أن يكون قديمًا في فعله جديدًا في معرفته. المهمّ أنه حديث تقرّ له نفس سامعه، فتستريح به من وعثاء الحياة وبرحائها. أمّا أن يكون غير ذلك، فهو هذر وهذرمة، مهما بلغ من الأهمية والتحقيق، على أنَّ ذلك متروك لمشارب النفوس وأهوائها وما تستسيغه من ذلك الحديث أو تميل إليه من صنوفه.

(1)

لا تكاد حدود قريتي المعامير قديمًا تكون نصف ما هي عليه الآن. كان البحر يحدّها من الشرق ممتدًا يناهز الأفق صفاءً وروعةً، ويزيد بهاءً في عين من يجده مصدر رزق لا ينضب وموئل حاجة. لا يملّ من سؤال السائل أو يشيح عنه ما غاض خيرًا وأترع كأس الطالب بركة. لم تكن مياهه مجرّد موضع للرزق عند أهل القرية. كان ملاذًا للخائف من حيف الظالم، وملجأ للظالم من دعاء المظلوم عند من لا تغفل عينه. وغير ذلك، كان لسكونه حين يجنّ ليله وتصفو شواطئه، وقع عند أهل القرية، إذ لم تغفل آذانهم صوت «اللسويجن»، الذي لطالما تخيلوه بأنيابه وقبعته المعروفة، يكاد يفترسهم قبل أن يلوذوا فرارًا!

وعلى كلّ حال، فقد ضافف ذلك البحر بيوت أناس عرفوه، وأمنوا السكنى قربه، ولم يجاوزوه كثيرًا، فقد حاد القرية من الغرب «مسجد الشيخ حسين»، فشارفها برًا ليمتدّ طولًا ويقف دون شركة النفط العتيدة، أما الجنوب والشمال، فقد تعارف أهل القرية على حدودها ببيوت بعض رجالها، وإن كانت القرية ستحدّ لو امتدت شمالًا

بالشارع الفاصل بينها وبين القرية المجاورة... ولعلّ مأتم «الزهراء» هو المعلم الأوضح بين تلك البيوتات، فقد بني على تلة كعادة البحارنة في بناء المآتم والمساجد على التلال، تحسبًا لطارئ أو مغافل لا يجدون فيه ملجأ سواه، أو هو مرصد يحذرون فيه منه! وعلى كلّ حال، فمنه تبدأ الحدود وفيه تنتهي!

والمتأمل في تاريخ مآتم قريتي، يؤرخ لها ويستنتج تاريخ مواطنتهم فيها وتعميرهم لها، فمأتمها الكبير المشار إليه، بني على تلة بعد نزوحهم.. خوف مداهمة أو هجوم، كما أشرنا، ومأتم «أولاد حسن» بناه بعض النازحين ـ بعد وقعة مشهورة ـ في أطراف القرية كما هو طبيعة النازح. أما الثالث، فقد شيّده «أبناء الشيخ» في بداية الأمر، حين «يضعنون» صيفًا، إلى أن قرروه من الحجر بعد استقراراهم، أما سواهم من المآتم، فأسّس لاختلاف أو لرغبة في التفرد!

أما اللافت، فهو عدم وجود مقبرة، كما هو الحال في بقية القرى، والسبب الرئيس أن لا حدود كانت بين القرية وجارتها، فاشتركت معها فيها، والتقت في دفن أمواتها الأحياء! ولعلّ بعضهم أرجع ذلك أيضًا إلى وجود بعض الصالحين في مقبرة القرية المجاورة، ليضيف هذا السبب إلى الأول توكيدًا وتحصيلًا.

ذلك رسم قريتي المعامير على الأرض، أما أحاديث قريتي، فلا يحدّها حاد، أو يقف بر أو بحر دون حكايات أهلها وقصصهم؛ حكايات خلفتها ظروفهم، ورسمتها في سماء العظة والعبرة معيشتهم. وما أسطره في هذه العجالة، هو أحاديث ظننتها مفيدة لمن يطلب تلك العظة والعبرة، أما غير ذلك، فليتوسّم القارئ منها ما يريد، وليستفد كيف يشاء!

(2)

لا تختلف علاقة أهالي قريتي المعامير «بالجن» عن غيرهم من القرى أو تتمايز عنهم، خوفًا من ذلك المجهول، وتحرزًا منه، وربما توقيرًا له في حديث أو همس. هو كائن بينهم يسمعهم ويرى أعمالهم، وربما عاقب من لم يقدم له الأطايب كلّ يوم أو ليلة، وإن باتت تلك الأطايب يومًا أو يومين دون أن يمسّها ذلك المسّ، فتلك علّة البشر وتقديرهم، فلا بدّ من أنّه مرّ عليها و»لحسها» دون ما يعتقده بعض من يدعي العلم من الإهمال والعزوف.

تلك حال لم أقدرها، ولم أؤمن بذلك الخفي يومًا؛ ذلك الخفي الذي لم تفتأ أمي كل ليلة تنثر له قطع البيض وبعض الطّعام، فإن سألتها عن سبب ذلك، أجابت بأنّه «لهم»! فأظلّ طوال الليل أترقّب قدومهم وأمنّي نفسي برؤيتـهم! وصباحًا، كنت أسأل أمي:

- أماه، لم يأكل أيّ منهم قطع البيض التي نثرتها... الظاهر أنها لم تعجبهم!

- وكيف علمت ذلك؟ «هم» أكلوا ما طاب لهم وتركوا الباقي.

- لا... لا لم يأكلوا... فقد راقبتهم طوال الليل، ولم أجد أحدًا منهم حضر ليأكل شيئًا.

عند ذلك، تشهق وتزفر، وتتّسع عيناها، وتجيب صارخة خائفة منهم عليّ:

- ومن طلب منك مراقبتهم... دعهم وشأنهم... يا الله!

وربما كسرت بيضة بعد ذلك، أو خبأت «عدرة» في مكان لا أغفله، ولا يخفى على أحد من إخوتي، تحت سريرها. كنت آكل تلك «العدرة»، وأستلذّ «بالمحمر» الذي يغفل عنه أصحابنا، وتقرّ عينها حين تجده وقد أتخموا به!

وقد يجاوز ذلك الإيمان بهم، أن خلقوا أسطورة زعموها وآمنوا بها: مخلوق برمائي أشبه بالبشر، لولا مخالبه وقبعته التي يعتمرها، حتى أصبحت مضرب مثل وخوف للبحارة خصوصًا.

«اللسويجن» كائن لم يره أحد، بل هي آثار رأوها وأصوات سمعوها أكّدت لهم وجود ذلك المخلوق، وعزّزتها حوادث نسبوها إليه وألصقوها به.

تراهنت مع أحد الأصحاب على وجوده، واتفقنا على أن نلتقي عند الشاطئ منتصف ليلة، ليثبت لي ذلك أو أنفيه. وفي الموعد المحدّد، حضر مرتجفًا خائفًا، فبادرته ساخرًا:

- هل أصابك مسّ منه حتى ترتجف كلّ هذا الارتجاف؟

- دع عنك تلك السخرية، واسمع ذلك الهدير المخيف، ألا يثبت لك وجوده؟

- أي هدير! أمواج البحر وأصوات بعض البحارة هنا وهناك!؟

- ...هناك، جهة الشرق، بجانب «بيبات» الشركة!

ضحكت من صاحبي، واستسخفت زعمه، فقد كان

لا تختلف علاقة أهالي قريتي «بالجن» عن غيرهم من القرى أو تتمايز عنهم، خوفًا من ذلك المجهول، وتحرزًا منه، وربما توقيرًا له في حديث أو همس

يعتقد ـ كما هو الحال عند معظمهم ـ أنّ الصدى هو صوت ذلك الوهم، ولم يستطع، كما توقّعت، أن يرينيه.

خرجت في تلك الليلة لا ألوي على شيء، كما يقولون، وربما كان خروجي لحاجة أو بعض أمر لأمي، رأت أني خير من يقضيه لها فقد ارتأت أنّه يمكن لأكبر أولادها أن يقضي من أودها ما استعجل في بهيم الليل. خرجت فرحًا لعلّي ألقى بعض الأصحاب فأسامرهم أو يسامرونني ساعة من الليل، أو حتى بعض تلك الساعة. وكان من عادتي أن أحاذي «حمام» القرية الشّماليّ في خروجي، لقربه من بيتنا، ففي القرية أكثر من حمام، قيل إنّ شركة النفط بنت الجنوبي، وقيل إنّ البلدية استحدثت تلك الحمامات بدل «حمامات الفضاء» الّتي كانت خلف بعض التلال، وقد قسمت حمامات القرية إلى قسمين للنساء وللرجال.

أما الرجال، فلهم حمام يقابل «مسجد الشيخ أحمد» في شمال شرقي القرية، وآخر في شرق القرية، في مقابل بيت المرحوم «محمد القيم»، وربما حاذى حمام الرجال هذا، حمام آخر للنساء يبعد عنه مسافة 500 متر تقريبًا. أما الرابع، فكان للنّساء أيضًا، ويقابل منزل المرحوم «محمد إلطيف» المقابل لقصرنا العامر. وقد بنيت هذه الحمامات في شاطئ القرية، مرتفعة عن مياهه، وإن غمر الماء في حالة «الجذب» أعمدتها بعض الأوقات. وفي كلّ حمام من هذه الحمامات المستطيلة الشكل، ستة أخرى تقسمه، يصعد إليها صاحب الحاجة عبر سلّم خشبي.

المهمّ أني خرجت الليلة لبعض أمور، كما أسلفت، ولفت نظري تجمّع بعض النسوة أمام «الحمام» القريب من منزلنا في ذلك اليوم، كن يتهامسن في خوف ووجل، وكان حديثهنّ يدور حول الجنّ أو «اللسويجن»، كما عرفت.

- يمكن مو هو؟

- والله العظيم هو؟ شلون تجدبيني وظلّه طالع واصل لآخر الشارع!

- بس وش بيسوي داخل؟

- سكنهم في مساكنهم... دروبهم ما ينعرف ليها.

- زين وحدة تدخل تشوف.

- والله لو أموت من الحصر ما دخلت، أي مجنونة مستغنية عن عمري!

حديث وهمهمة علمت منها أنّ «بعضهم بالداخل»، وينتظرن خروجه، ولكن كيف يجرؤ بعض الرجال على أن يدخل في هذا الوقت؟ ألا يخاف أن يكون مسبّة القرية ومحلّ ازدرائها؟! ثم كيف لم يحركن ساكنها وهن يعلمن ـ كما فهمت من حديثهن ـ شخصه!؟

- ليش ما تشتكون عليه ومخلينه؟

- نشتكي عليه! شكلك استجنيت!

- أي ما دام تعرفونه جان اشتكيتون عليه.

- نشتكي على «اللسويجن»! عند من؟!

«اللسويجن»! هل يتكلَّمن عنه؟ هل هو صاحب الظلّ المزعوم؟ تلك فرصة لن تواتيني أبدًا لو تركتها؛ أن أقابل

من ملأ الدنيا وشغل الناس، فإن كان كما يعتقدون فررت، وإن الباب قريب أصله بقفزة واحدة أو...

ولأدع الهذر والتهذر، ولأصعد إلى الحمام لألتقي ذلك المبجل المتعمّم بقبعة الرعب والخوف، وأظنّ أني لم أسمع صيحات الجزع والرهبة حين وجد النسوة ذلك الصبي الذي لم يتعدَّ الثانية عشرة يصعد الحمام ليلتقي «اللسويجن»، أو ليناجزه ويقاتله. المهمّ أن الخوف توارى خلف الفضول... وصعدت درجات ذلك السّلّم وأنا أؤخّر خطوة وأقدّم اثنتين... ودخلت... كان الظلام حالكًا، والحمام بأقسامه يخيّم عليه سكون الخوف، ويزيده همس النساء الّذي بدأ يخفت وأنا داخله... اقتربت من «اللسويجن» في رهبة... وإذا ذلك المرعب الذي هزّ قلوبهنّ الضعيفة، خشب مسندة نسيها بعضهم داخل الحمام، حملتها بيدي الصغيرتين، وخرجت لألقيها عليهنّ:

- تفضّلوا «للسويجن»، مالكم... قتلناه!

كان ذلك الأمر حديث القرية في اليوم التالي، ومحلّ تندر وسخرية عند كثير منهم، ومحلّ غضب وخوف في قلب تلك الأم التي تحفّظت عن خروجي ليلًا في لاحق الأيام!

(3)

في المعامير خمسة مساجد... شهدت بناء اثنين منها، أما الثلاثة الباقية، فلم أعرف سوى أنها مواضع كان بعض العلماء يصلّي فيها... فبنيت مساجد، وسمي كلّ موضع باسم ذلك العالم، واتخذ أثره بقعة من بقاع الله، وكأنّ الله أراد ألا تضمّ تلك الأرض صفائح ذلك النحرير... أو تتشرّف بعبق جنته في أرضه. حدّت تلك المساجد القرية من جهاتها الأربع، وكأنَّ ذلك العالم آثر الانقطاع، واتخذ تلك المواضع النائية في غابر الزمن موئلًا لعبادته ومناجاة ربه، فضلًا عن بعض الدروس التي كان يلقيها في الموضع نفسه.

أمّا الرابع، فقد بني بعد أن روت إحدى النساء أنها رأت في عوالم الصدق، أنّ بعض العلماء يصلي في تلك الأرض، وزعمت أنّ تلك الرؤى ناجزت أحلامها، حتى اضطرت المشّرع إلى أن يبني مسجدًا في تلك البقعة الطاهرة، غير أنهم تحيّروا في العالم الذي كان يصلّي في المكان، فلمّا ضاقوا بذلك، سموه «الضامن»، وكأنهم صادقوا على أنّ من يلبي نداء الله في المسجد.. ضمن جنان الخلد، أو كان من جنده المجندة على الأقل.

أما «الجامع»، فله قصته. كان مسجد القرية الرئيس قد ضاق بالمصلّين؛ ضاق ذلك الرّحب عن استيعاب أعداد المصلين حين يؤمهم شيخ الناحية وإمامهم الجامع، كان يصلّي بهم بعض أوقات... أو هي مرة في الأسبوع، ومع ذلك، كان المسجد يغصّ بالمصلّين، فما كان إلا أن افترشوا أرضه المحاذية إلى أن يأذن الله ويوسّع عليهم!

وربما لاحظ هو ذلك، ورأى ضيق الفناء وصغر الباحة:

- الناس تشكو صغر المكان يا حاج عبد علي.

- كنا نظنّ أنّ باحة المسجد الخلفيّة ستكفي تلك الجموع.

- لا بدّ من إيجاد حلّ... كلِّم الشيخ في ذلك.

- الشَّيخ يعلم.. وأظنّه أشار إلى الحاج مهدي برأي في

مجلسه الأسبوع الماضي.

كان الشيخ في مجلسه قد اقترح أن يبنوا جامعًا كبيرًا يكفي تلك الجموع الغفيرة.

- المشروع مكلف يا شيخ.

- الأيادي البيضاء ستتكفّل ببنائه يا حاجّ مهدي، وسأكتب لك خطابًا لبعض الوجهاء يعينك في ذلك.

- توكّلنا على الله.

«...»، كان أوّل وجيه كتب الشيخ خطابًا له وحمّله للحاج مهدي. جهد الحاج في الوصول إليه، فالرجل بالغ الثراء، ومشاغله الكثيرة تمنعه أن يلتقي عامة الناس، وربما كان مجلسه الأسبوعي الذي يعقد مساء الثلاثاء قد سهّل على الحاج مهدي لقياه، ثم هو في خير يستحقّ أن ينتظر الرجل أشهرًا وأيامًا في سبيل تحقيقه.

دخل الحاج مهدي مجلس الوجيه، فسلّم عليه تسليم المرهوب، وأزجاه خطاب الشيخ بعد أن أبلغه سلامه، وردّ عليه «...» في يسر أو بعض يسر، وهو يتسلّم خطاب الشيخ الذي تأمله بعض تأمل، ثم أومأ ـ أو هكذا تخيل الحاج مهدي ـ إلى بعضهم ليرافق الحاج مهدي إلى خارج المجلس ويسلّمه ظرفًا. تنفّس الحاج مهدي الصعداء، فقد ذهبت الرهبة حين تسلّم ذلك الظرف الذي أمله الحاج «مبلغًا» يقيه رهبة مجلس الوجهاء وسؤال كثير منهم. وربما كان فضول الحاج مهدي وخفّة الظرف، هما ما جعله يستعجل في فتحه قبل أن يبارح مجلس الوجيه.

حين فتح الحاج «مهدي» الظرف، أبدى دهشةً وعجبًا، فقد ضمّ مبلغًا لا يتعدى أصابع الكفّ الواحدة!

ربما كان الرجل أخطأ في هبته، أو اشتبه عليه الأمر، أو أنّ من سلّمه المظروف أعطاه غير ما قرره الوجيه، ثم إنّ خطاب الشّيخ أكبر من يتدنى تبرعه عن المئات، فضلًا عن دنانير خمس، وقفل الرجل راجعًا إلى عامر المجلس.

- طال عمرك، أظنّ من أعطاني الظرف اشتبه عليه.

- لم يشتبه يا ولدي، ألست مبعوث الشيخ؟!

- ولكنه زهيد لا يتبرع به ميسور!

- وهل تظن أنّ تلك الدنانير سرقناها سرقة، إنما هي تعب سنين وأرق عقود؟!

ولم يستطع الحاج مهدي صبرًا على منطق الوجيه وحجّته الدامغة في تبرعه، فألقى المظروف في مجلسه، ومضى محنقًا غاضبًا يخبر الشّيخ بتربّع الوجيه الكبير!

- لا عليك يا حاجّ مهدي، كلّ شيء يهون في سبيل الله، وسأكلّمه في ذلك.

- عدم تبرعه خير مما فعل.

- إلى خير يا حاج مهدي، إلى خير.

وطلب الشّيخ بعد أيام من الحاج مهدي أن يعود إلى الوجيه في مجلسه، فسيعطيه ما يليق! ودخل الحاج هذه المرة مجلس الوجيه دون أن تخالجه الرهبة أو تنتابه رئاسة أو فخامة.

- لمَ كان ذلك الغضب يا ولدي؟

ثمّ أومأ لبعض أتباعه، وعاود تسليم الحاج ذلك المظروف، وقد كان أقلّ اهتمامًا هذه المرة أو فضولًا، ولكنه فتح الظرف أمام الوجيه، ووجد ما يسرّ له الناظر، فنظر إلى الوجيه قائلًا:

- إن تبرعك هذا ـ رغم كثرته ـ إرضاء للشيخ، وليس لوجه الله، فلا حاجة لنا به!

ثم ألقى المظروف وخرج!

(4)

ما زالت ذاكرتي تتعلق ببعض رجالات القريّة، كنت أرى بعضهم فتأخذني الرهبة، وأحلم بأن يكون لي من المهابة ما حازوه أو نالوه. ولعلّ الذاكرة، إن ضاع منها الكثير، لا بدَّ من أن تتعلّق ببعض من توسّمتهم، وتخيّلت نفسي في موضع الوجاهة والفخامة كما هم.

- الحاج سعيد: كنت أترصّده بعض الترصّد كلّما مرّ وخلفه من رجالات القرية. كانوا يبدون له الهيبة، ولا يتقدّمه أحد منهم. كان ـ رحمه الله ـ طويل القامة مهيب، فيه بعض الانحناء، وكان يتميّز عن غيره ببياضه التام!

كان الرجل يلبس ثوبًا أبيض وعقالًا أبيض، وحتى «مداسه» كان أبيض. وقد زينت تلك اللحية البيضاء ذلك البياض، وزيّنه أكثر ذلك القلب الّذي وسع الفقراء والمحرومين من أهل قريتي، فقد كان مجلسه عامرًا بهم، لا يكفّه ليلًا أو نهارًا، بل كان بعضهم يجده مسجدًا فتحت أبوابه بدل ذلك الموصود.

- الحاج إبراهيم: لم أعرفه إلا رجلًا نافذ البصيرة، له من الرأي ما ينصاع له من لهم الحكم والمشورة في البلد، وربما قرر دون ما قرروا ورجحوا، من دون أن يستطيع أحدهم أن يعارضه أو يلومه. وباختصار، فقد أعطى الرجل كرسيّ «المخترة» مهابة وأهمية، وأذكر أنّ أحد المتنفذين حاول أن يستولي على أرض في القرية، فزجر من أرسلهم وطردهم، من دون أن يحاول ذلك المتنفذ أن يعاود كرته مرة أخرى.

- الحاج محمد بن إبراهيم: عرفته صاحب أسطول. ورغم ثرائه ويسر حاله، فإنه لم يكن متكبرًا أو متجاوزًا حقًا، بل عرفناه جارًا صاحب مروءة ويد بيضاء.

- الحاج علي بن مدن: أشدّ ما يعلق في ذاكرتي، هو السّاعة الكبيرة التي كانت تزيّن مجلسه. ولا أبالغ إن ادّعيت أنّ ساعته تمثل التوقيت الرسمي لأهل القرية، وربما كان موعد الصلاة أو غيره لا يكاد يتجاوز ثواني يعدّها الحاج في مجلسه، ويعلن فيها أنّ ترك البيع قد حان!

لا أدّعي أنّ هؤلاء هم فقط رجالات القرية من ذوي المهابة والتوقير، ولكنّهم من علق في الذاكرة أو علقت الذاكرة بهم، ربما لقرب بيتنا من بيوتهم، كالحاج محمد بن إبراهيم، أو لأيديهم البيضاء، كما في حال مختار القرية.

(5)

الحاج حسن بن كسيل: يوم مشهود ذلك اليوم الذي يزور فيه القرية. كان حلاقًا مشهورًا في منطقتنا، يزور القرية يومًا في الأسبوع أو يومين، يجلس مع أهلها في مجلس بيت «القيم»؛ أكبر مجالس القرية، ويؤمه الناس من أنحاء القرية، أو حتى من القرى المجاورة، ليحلق لهم «بروبيه» فقط. و «الفقط» هنا تهويل عند بعضهم، لأنها تعادل الدينار في وقتنا الحاضر.

وعلى كلّ حال، فقد أتقن الرجل نوعًا واحدًا من الحلاقة: «القرعة»! يد خفيفة. لا تكاد تشعر بتلك السّكّين الحادة الّتي يمررها فوق شعرك، لتخرج بعدها وأنت في خفة من الشعور بعد تساقط الشعر!

ولأنّ الشّيء بالشّيء يذكر، كما يقولون، فأذكر أني حين دخلت في سلك العمل ـ وكنت دون العشرين ـ خرجت في سوق المنام، لعلّي أجد بعضهم يخفّف بعض الشّعر، غير شفرة الحاج بن كسيل التي جعلتني ندرة بين موظفي الشركة التي أعمل فيها!

- سلام عليكم حجي، أبغي أحلق عندك في مجال؟

- تفضل يا ولدي.

- بس ما أبغي تحلق ليي «قرعة» خفيف.

- «تواليت» يعني.

- أي.

- والله أحنا ما نسوي هالتواليت، إذا تبغي أقرع تفضل، ما تبي كيفك.

- لا ما أبغي أقرع.

- قول أبغي أنفع لهنود.

- يا حجي، ما ليه معنى هالحمق، قلت ليك ما أبغي أقرع ومو مسألة هنود أو غيره، هالزمن القرعة تخليك مطنزة بين الناس، وبخاصة في العمل.

- إي تشبهوا بالإنجليز.

تركت الجدال مع الرجل، وتوجّهت إلى غيره من الهنود، لأخرج بآخر صيحات التواليت، ورجعت إلى المنزل خائفًا من رد فعل الوالد، رحمه الله.

- ما تستحي تسوي هالتواليت، تتشبّه بالأجانب.

- ما أقدر أحلق قرعه وأصير مطنزة، إذا منت موافق بفنش.

وربما كان للوالدة، رحمها الله، دور كبير في تهدئته، وفتح الباب بعد ذلك لإخوتي في النهج «التواليتي».

الغريب أنّ ذلك المسنّ الّذي رفض أن يحلق لي «تواليت»، وجدته يزيّن بعض زبائنه به بعدها بسنين. وحين ذكّرته بما حصل، زجرني أشدّ الزجر، فيا لله من دول الدنيا!

(6)

ليس صحيحًا ما يُقال أو يُزعَم عن أنّ النقاء والصّفاء اندثرا بموت الآباء والأجداد، فلم يكن الخير كله فيما يفعلون أو ينهجون، وتلك النفس البشرية تتلوّن بتلوّن الدنيا، وتتكيّف كيفما تكيّفت، وتبقى أطماع البشر كما هي، وإن اختلف الزمان، أو تبدّلت الشخوص، وتباين المكان.

- أخ بس لو ترضى تتزوّجني.

- عندك ثنتين يا حاج رضي.

- والله ثنتينهم ما يسوون ظفرها، تخلص العدة بس!

حديث تنصّتّ عليه وأنا صغير بين فحول من قريتنا، ولا أظنّ أنّ غيري ينكر الواعية التي تنطلق من بعض بيوت الطين أو «العروش» في حالك الليل، إما لسرقة أو شهوة رجل من عصر النقاء والصفاء.

حدّثني من أثق من الآباء رحمه الله:

كان من جبروت بعضهم أن أمر بعض أتباعه أن يذهبوا «جزوي» يعمل عند غيره «ليحش» له.

- بس هو ما يشتغل ويانا طال عمرك.

- حتى لو ما يشتغل، روحوا ليه وقولوا ليه: النوخذه

يقول ليه: اليوم العصر تروح «تحش».

وحين رفض ذلك بحجّة أنه لا يعمل لديه، غضب أشدّ الغضب.

- روحوا جرجروه من بيتهم هني وأعطوه «دست»، علشان ما يتطاول على عمامه ويرفض.

والأشدّ من ضربهم له، أن أوعز إلى من يعمل عنده أن يطرده ولا يقبل أيّ من نواخذة البحر أن يعمل لديه.

ولولا أن سخّر له الله العمل في «بابكو»، لهلك الرجل وعياله من أجل جبروت «نوخذة» دالت عليه الأيام، وأصبح يستجدي من يعمل عنده!

(7)

بدأ البيت يضيق بنا... وبدأنا نضيق به. ذكريات ذلك البيت لا يمكن أن ينساها ذلك الصغير كما لا يتذكرها كثيرًا. هي طفولة مع أم رؤوم وأب كادح صنعته الأيام ومجالس الرجال، كما كان يقول حين أبى الدهر إلا أن يتركه وحيدًا بعد أن حصدت موجة الجدري أهله بأجمعهم. يتذكّر أمه في الصباح الباكر وهي تخط إلى خارج البيت لملء «البغال بالماء»، قبل أن تتعطف عليهم «بابكو» بمائها العذب.

يتذكّر ذلك البيت بصحيفته البيضاء، والذي حرصت أمه على دوامه رغم ترابيته. نعم نعم، يتذكر تلك الدجاجة التي وقفت طوال نهار أمام جحر تقتل فئران البيت، حتى لا يعتدوا على فراخها. وعلى كل حال، تلك ذكريات ما علق من طيبها ضاع مع الزمن، وما بقي حاولت ذاكرة تلك الطفل أن تنساه وتراكمه في غبار الأيام دون جدوى. والعجب ما حصل في تلك الأيام، إذ ادعى بعض الأقارب ملكية ذلك البيت، بل وأقاموا حجة البطش والتهديد دليلًا، وتنازلوا عنه صاغرين بعد ذلك، حين زجرهم «مختار القرية»، وردّ كيدهم في نحورهم كما يقال.

كان ذلك المختار وابنه أشدّ الناس عطفًا على ذلك اليتيم، ولولا تلك المحبّة وذلك العطف... لذاق كثيرًا من يتمه في شيخوخته، فضلًا عن حداثته!

أذكر أنّ أحد الأقارب هجم علينا «بمنجله» ذات يوم.

- منهو إلي ضرب ولد، والله إلا أقتلكم.

- تعود من الله يا حج أحمد، وصل على النبي ما ويانا غير الله، تتهجم على نسوان وجهال، خاف الله ويايي غريب ولد إختي.

ذلك استجداء لا أنساه، وتعطّف لا يكاد يفارق أذني وأمي تسترحم أحد الأقارب أن يتركنا وشأننا، والغريب أنها في تلك اللحظة، احتضنت ابن اختها دوننا، خوف أن ينطلق عقال الحاج أحمد من مربطه.

وعلى كلّ حال، فقد سأل أبي أحد أحفاد المختار أن يكتب له كتابًا للبلديات، يسألهم فيه أن يناله نصيب في التقسيم الجديد، وربما راجعهم الوالد، أو راجعتهم أنا رغم صغر سني، بل وكتبت خطابًا آخر لهم حين جاوزنا الدور شهورًا كثيرة، وكنت في مسجد الشيخ أحمد حين سمعت اسم أبي بين من قسمت لهم الدولة بعض أرضهم غرب القرية البور، لتعمر ببيتنا وبيت من جاورنا، بل وتتعدى تلك القرية حدود المساجد إلى المصانع.

انتقلنا إلى البيت الجديد بعد أن بنيناه بسواعدنا وتزوّجنا فيه. أما بيت الطفولة والذكريات، فقد مهره أبي لبعض أولاده حين عجز عن دفع مهورهم نقدًا.

عباس مزعل: باحث من البحرين، يعمل في مجال تحقيق المخطوطات وتوثيق التراث البحريني، وقد أصدر ثلاث مخطوطات محققة

للتواصل عبر الإيميل: abbaswise@gmail.com

فوبيا الكاميرا.. بين أن أُعْدَمَ أو أن أَعْدِمَ أرشيفي

عبد الجبار الرفاعي

ولدت ونشأت وترعرعت في قرية جنوب العراق فقيرة بكلِّ شيء. تفتقر إلى الوثائق والنّصوص المكتوبة، ذلك أنّ أهل الريف ثقافتهم شفاهيَّة، يندر أن تعثر على مدوّنة في حياتهم. لا أتذكَّر في بيتنا أوراقًا أو كتبًا أو صحفًا، ما عدا كراسات قليلة ذات أوراق صفراء تتحدَّث عن حكايات شعبيَّة، بعضها مستلّ من «ألف ليلة وليلة»، لا يتجاوز عدد صفحاته 32 صفحة. كان أخي الكبير شريف القحطاني يشتريها من كربلاء أو النجف حين يذهب لزيارة المراقد المقدَّسة.

في المرحلة المتوسّطة، التحقت بمتوسّطة «قلعة سكر»، وبدأت أتعرَّف إلى المراسلات البريديَّة وطوابع البريد، وبعض الكتب في هذه المدينة. حرصت على نزع الطَّوابع البريديَّة من أغلفة الرّسائل الّتي تصلني من أخي الّذي كان يعمل في الكويت. وما أعثر عليه من طوابع رسائل ممزقة ومهملة، أغلفتها في مكبّ النفايات.

طابع البريد هو أوَّل رصيد بدأ يتراكم في أرشيفي البدائي السّاذج. كان الطَّابع نافذة ضوء تمدّني صورها بشيء من معرفة مناسبات بلدي وأعلامه ورموزه، بل كان نافذة اكتشاف لبعض البلدان التي لم أكن من قبل أعرف حتى اسمها. وبمرور الأيام، تملَّكتني رغبة الاحتفاظ بما يصلني من رسائل، وبعض صور المفكّرين والفلاسفة المنشورة في الصّحافة. أتذكَّر في ذلك الوقت أني قمت بإلصاق صور فلاسفة غربيين، اقتطعتها بمرور الأيام من صحف قديمة، على «كارتونة» أصبحت لوحة، وعلَّقتها في غرفة الطّين في منزلنا الريفي.

لطالما أثارت هذه اللوحة فضول الفلاحين في القرية الَّذين يزورونا، فيتساءلون بدهشة واستغراب: من هؤلاء؟! وبخاصَّة أنَّ صورًا لأمثال هيغل وماركس وكانط وشوبنهاور ونيتشه، وغيرهم من الفلاسفة، لم تكن ملامحهم مألوفة

في مجتمع صغير مغلق كقريتنا؛ مجتمع شفاهيّ صِلاته مع ما حوله هامشيَّة ومحدودة جدًا، لا يرى من الألوان سوى ألوان السّماء والمحاصيل الزاعيّة والحيوانات.

كانت تثير الفلاحين نظرات أعين الفلاسفة الحادة، شعورهم الطويلة، وجوههم الصارمة. لا توحي وجوههم بهدوء وابتسامة واسترخاء ودَعَة وراحة ودفء. أضطر أحيانًا إلى التحدّث إليهم عن أنَّ هؤلاء رجال كبار، وأحاول أن أقارن بينهم وبين ما يختبئ في ذاكرتهم من رجال مقدّسين وفرسان وزعماء تاريخيين، نسج لهم متخيّلهم الجماعي صورًا شديدة الإثارة، عابرة للزمان والمكان. رسمها ذلك المتخيّل الَّذي أضحى منبعًا يصوغ رؤيتهم لله وللمقدّس والإنسان والعالم، ويحدّد مفهومهم للحقيقة، وكيفيّة إدراكها.

كانوا يعربون عن دهشتهم من هذه اللوحة النابتة في غرفة طينٍ، غريب كلّ شيء فيها على ما تتحدَّث به صورها، إذ لا ديكور أو أثاث أو ترتيب متّسق فيها. إنها صور لا معنى تبوح به إليهم، إلا ما يحيل إلى متخيّلهم الميثيولوجي للمقدّس، المفارق للصور الدنيويّة الحسيّة. أكثر من مرة ازدرى بعضُهم أصحابَ هذه الصّور، فوصفوهم بالجنون أو الهبل، وأسمعوني عبثية هذه اللوحة الغرائبية الَّتي صنعتها لمخلوقات تثير الاشمئزاز والقرف، بوصفها لا تشبه مفهومهم للكائن البشري. مفهوم البشر في قريتي هو الفلاح والراعي ابن الأرض، المألوف والمعروف، وكلّ إنسان غيره من الصعب منحه صفة الآدمية لدى هؤلاء الناس الذين لا يعرفون إلا أساطير عن الأجناس البشرية خارج محيطهم.

أرشيف صور الدكتور عبد الجبار الرفاعي (1971 - 2016)

في مرحلة دراستي الثّانويّة في مدينة الشّطرة جنوب العراق، بدأتُ بتدوين يوميات في صفحات مفكّرة صغيرة جدًا. أكتب كلّ يوم مساء عدّة جمل، تشير إلى أهمّ الحوادث والمواقف الشّخصيّة في ذلك اليوم. وهي عدوى استبدَّت بي من بعض زملائي في الإعدادية الّتي درست فيها، إذ كان التّلامذة من جيلي يغرمون بهوايات متنوّعة، منها كتابة الشعر الشّعبي العراقي في دفاتر صغيرة، والحرص على استظهاره وإنشاده وغنائه في سهراتهم، ليالي العطل في السّكن الطلابي، ومنها الشّغف بصور المطربات ونجوم الفن، التي يتصيّدونها من مجلات الفنّ اللبنانيّة والمصريّة.

وجدت نفسي خارج غواياتهم وهواياتهم، ما خلا تدوين يوميات قبيل النوم كلّ ليلة، وهي تسجيل رديء لحوادث شخصية رتيبة، لا تشي برؤيا لما تبوح به تلك المواقف والحوادث. لم تتواصل هذه العمليَّة طويلًا، إذ سرعان ما شعرت بتفاهة ما أقوم به وعدم أهميته، لذلك أعرضت عن ذلك، وأهملت تلك اليوميات. ربما لو استمرت كتابتي لليوميات مدة طويلة، لتطوّرت عموديًا وأفقيًا عبر انفتاحها بمرور الزمن على فضاء بديل، يمنحها طاقة تجدّد حيويّتها وتكرّس ديمومتها. حتى اليوم، أعجز عن أن تصير الكتابة مهنتي اليومية.

اكتشفت لاحقًا أنّ مزاجي الشّخصيّ لا يطيق الرتابة. لحظة يكرر اليومُ صورةَ الغد وينسخها كما هي بكل تفاصيلها وألوانها، أشعر بكوابيس مُرّة. في التكرار يتوقّف الزمن الشّخصيّ الباطني، لذلك لا أطيقه. لعلَّ ذلك هو سرّ أسفاري وهجراتي في عوالم المدن والبلدن والكتب والأفكار والأشخاص والأشياء. لا تغويني هوايات جيلي وموضاته، وحتى لو هرولت بغية محاكاته، سرعان ما أهرب، كي أسكن لما تسكن إليه روحي.

أوّل صورة فوتوغرافيَّة طلبتها مني المدرسة الابتدائيَّة، كي يلصقوها على صفحتي في سجلّ تلامذة المدرسة، وهي صورة شمسيَّة التقطها مصوّر بكامرته الخشبيَّة في مدينة الرفاعي. لا أتذكَّر صورة سبقتها. أدهشتني العبقرية الفذة لمخترع الكاميرا الشمسيَّة، ففي زيارة لمعرض الفنان والمخترع ليونارد دافنشي «1452 - 1519»، في مدينة فلورنسا الايطالية، شاهدت نموذجًا خشبيًا ابتكره للكاميرا الَّتي كان يحلم بصناعتها، بموازاة ما أنجزه من اختراعاته الكثيرة، أو ما اقترح فكرته وخارطة لصناعته تترقّب من ينتجها في زمان لاحق. أدركت أنَّ عقل الإنسان يمكنه أن ينجز الكثير من وعوده وأحلامه، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى مستحيلة.

لاحظت أنَّ الصّورة تنطبع ابتداء بشكل مقلوب على رقاقة بلاستيكيّة، تسمّى «جامة»، ربما لأنَّها شفافة كالزجاج الذي نسميه باللهجة العراقية «الجام».

«الجامة» صورة لا تشي إلا بملامح عامة، كأنّها ملامح موتى. يقوم المصوّر بعد ذلك بغسلها بمحلول كيمياويّ داخل صندوق أسود، وبعد أن تجفّ يصوّرها من جديد، لينتج عدّة صور منها.

عثرت في صورتي على شيء باهت يحاكي بعض تعبيرات وجهي. ابتهجت كثيرًا حين شاهدت صورتي للمرة الأولى في حياتي. عثرت فيها على شيء من ذاتي يحاكي ذاتي، وكلّ ذات عاشقة بطبيعتها لذاتها. لا نمتلك في بيتنا «مرآة» نرى فيها وجوهنا صباحًا ومساءً، إلا مرآة صغيرة جدًا يستعملها المرحوم أبي فقط عند حلاقة ذقنه، وبعد أن يفرغ من الحلاقة، يحتفظ بها في صندوق صغير مع ماكنة الحلاقة. المرآة أوّل نافذة ضوء للكائن البشريّ، يكتشف فيها صورة وجهه وبعض ثيمات جسده، وتبدّد شيئًا من عتمة الطّبقات المبهمة لعوالم الذات.

كم أسعدني هذا المنجز البشري الّذي منح الإنسان فرصة لرسم صورته بلا ريشة رسام وألوان، وكأنَّ الكاميرا تحمل بشرى يشرق من نافذتها ضوء على دنيا الغد. أثارني شكل الكاميرا الشّمسيّة وصندوقها المغطّى بقماش كثيف أسود، وكيف يدخل المصور رأسه فيه لإنتاج الصورة عبر سلسلة عمليات رتيبة.

كلّما رأيت اختراعًا ومنجزًا جديدًا للعلم فرحت. لبثت هذه الحالة معي إلى اليوم، وإن بتوتّر أخفّ.كثيرًا ما أشعر بأنَّ كلّ اختراع يزفّ بُشرى للعيش في غد أجمل، يهديها أولئك المخترعون الأفذاذ لكلّ كائن بشريّ، وإن كان ذلك الكائن لا يعرف قيمة منجز العلم، أو يناهضه كما هي الجماعات المتوحّشة؛ عدوة العلم والمعرفة والتكنولوجيا، غير أنها لا تني تتوكّأ عليها في إدارة فاشيتها الدموية وإنتاجها.

مكاسب العلم تتحدَّث عن مرايا الغد الَّتي تصوّر أحلام البشر وما يرتسم فيها على الدوام من انتصارات عقله على توحّش الطبيعة، وتحطيم قسوتها، وقدرته على ترويضها، وظفره باستثمار ثرواتها، من أجل أن تصير حياته أسهل وأجمل. هكذا كان شعوري مع أوَّل سيارة ركبتها، تنتمي صناعتها إلى خمسينيات القرن الماضي، هيكلها مصنوع من الخشب، ما خلا محركها الَّذي كان يعمل بالنفط الأبيض «الكيروسين»، ولا يدور إلا بـ»الهندر».

لا أتذكّر التقاط صور أخرى لي بعد هذه الصورة، إلاّ بضع صور لمعاملات إصدار الجنسيَّة ودفتر الخدمة العسكرية ووثيقة التخرج من الابتدائية، نهاية الستينيات من القرن الماضي.

بعد تخرّجي من المدرسة المتوسّطة في مدينة «قلعة سكر» جنوب العراق، انتقلت إلى مدينة الشّطرة، الّتي أقمت فيها ثلاث سنوات، حتّى تخرّجت من الدّراسة

الثانويّة.

تمتلك الشّطرة منذ أكثر من نصف قرن شخصيّة مدينة، لا تخلو من فرادة في محيطها الإقليمي. مدينة تشهد عروضًا سينمائية ليلية، فيها استوديو للتصوير أسّسه رجل محترف، ومكتبة عامة ثرية، قرأت فيها الجزء الأول من كتاب «لمحات اجتماعية في تارخ العراق الحديث» لعلي الوردي، وكتبت تعليقات على حواشي صفحاته، لا أعرف مدى أهميتها، وإن كنت أتمنى أن أعثر عليها الآن، كي أكتشف منطق التفكير الذي تملّك ذهني ذلك الحين. الافتقار إلى الأرشيف الشخصي هو افتقار لأهمّ أدة نكتشف فيها تاريخ تطوّر الذهن، ومسار عملية التفكير، والمنعطفات التي عبرتها الشخصية.

مطلع سبعينيات القرن الماضي، كانت الشّطرة أكثر تحضّرًا من المدن الصّغيرة بجوارها. تنفرد هذه المدينة بوجود مكتبة لبيع الصّحف والمجلات، ومطاعم تقدّم أكلات شهيّة لم أذقها من قبل، وصالة لعرض الأفلام السينمائية، فيها دخلت لأول مرة السينما، وشغفت برومانسيّة الأفلام الهندية. كنت أغرق في انفعالات حارّة، عندما يتصاعد التمثيل ليصل إلى ذروة المواقف العاطفية التراجيدية والكلمات الحارقة. أكثر من مرة نزفت دموعي معها بحزن وألم. الأفلام الهندية تكتب كلمات حارقة تحيل إلى مواجع طفولتي وفتوتي وجروحها.

بعد أقلّ من عامين، امتنعت عن دخول السينما، وهجرت مشاهدة أيّ فلم، كذلك هربت من استماع أية موسيقى، ولم أعد أتذوّق فتنة ألوان الصور الجذابة. حدث ذلك بعد أن طالعت كتاب «معالم في الطّريق» لسيّد قطب في الصف الخامس الثانوي. استنزفتْ روحي غوايةُ شعاراته وأناشيده، مثلما استنزفتْ روحي النّصوص الأخرى لأدبيات الجماعات الإسلامية. إنها نصوص كلما غرقت في مطالعتها، سجّلت غيابًا إضافيًا عن فضاءات الفنون الجميلة، بل إنّ مطالعتي للمزيد من تلك النّصوص، تغيبني عن تذوّق صور الله الجميلة وجماليات الوجود.

في هذه المدينة، شباب يهتمّون بمطالعة الكتب والصّحف والمجلات، يحاولون الانفتاح على عصرهم، ومواكبة كل ما هو جديد بحدود إمكاناتهم الضيّقة. تتردّد في كلماتهم أسماء بعض الفلاسفة والمفكرين والأدباء والكتّاب، ويؤشرون إلى بعض مؤلّفاتهم المعرّبة في أحاديثم. وصف البعض (الشطرة) وقتئذ بـ»موسكو الصغرى»، لأنّ الحزب الشّيوعيّ العراقيّ يمتلك قاعدة شبابيّة واسعة فيها.

في الشّطرة بدأت تتراكم الصّور في أرشيفي الشّخصيّ، إذ كان بعض زملائي يمتلكون كاميرات تصوير عاديّة، مضافًا إلى وجود مصوّر يحتكر هذه الحرفة في المدينة، ولا يكفّ عن التفنّن في تلوين الصّور وتجميلها. بعد عودتي من المنفى الّذي أمضيت فيه ربع قرن تقريبًا، زرت هذه المدينة وذهبت إلى محلّ ذلك المصور، فوجدت أحد أبنائه، وحدثته عن أني كنت زبونًا لأبيه، وأتمنّى أن أحصل على نماذج من صوري القديمة لديهم، الّتي لا أمتلك أيًا منها. لم أعثر إلا على صورة واحدة تعود إلى العام الدّراسيّ 1972/1971.

بالتّدريج، اجتمعت لديّ مجموعة صور شكّلت أوّل

ألبوم اقتنيته مطلع سبعينيات القرن الماضي، وأنا في عمر 16 عامًا، ثمّ أضفت إليه ألبومًا آخر بعد مضي عدّة سنوات.

رغم حاجتي العميقة إلى أرشفة ذاكرتي وتوثيقها، كما هي الحاجة الأبدية لكلّ كائن بشري في تخليد ذاكرته، فإنّ انخراطي في الجماعات الإسلامية في مرحلة مبكرة من حياتي، أطفأ لهيب الشّغف بالذاكرة، إثر تدجين متواصل لا ينشد إلا تنميط الذات عبر إذابتها في الجماعة، والتنكّر إلى حاجات جسد الإنسان، وتجاهل ظمأ روحه، وإطفاء منابع الفرح والمرح في شخصيّته.

في هذه المرحلة، لم تعد للصّور وكلّ وثيقة تتّصل بالأرشيف الشخصيّ أهمية عندي، ذلك أنّ لدي مهمة «رسولية» أعظم وأسمى من كلّ هذه الهوايات الرخيصة، كما تشدّد على ذلك رؤيتي الجديدة للعالم، المستقاة من أدبيات الجماعات الإسلامية.

لطالما عشت صراعًا عنيفًا بين مشاعري وحواسي الظاهرة والباطنة التواقة إلى كل ما هو جميل، وما تمليه عليّ مفاهيم وتقاليد الانتماء إلى هذه الجماعات، التي تقول تعاليمها إن «كل شيء جميل في حياتك مؤجل، أي أنك تستوفيه نسيئة غدًا، لا نقدًا هذا اليوم». وكأن ما في الحياة من ضوء ومسرات لا يليق كله بمن يؤمن بالله ورسوله الكريم «ص». الغريب أنّ أدبيات الجماعات لا تكترث إلى الاستفهام الإنكاري للقرآن، وإشارته في أكثر من آية إلى عدم تحريم زينة الله والطيبات، مثل: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} (الأعراف: 32)، ما أفهمه أن «زينة الله والطيبات» تؤشر إلى جماليات الوجود، وكل ما يضيء ظلام العالم ويبدّد عتمة أيامه.

تشدد تلك الأدبيات على أن مهمتها في هذا العالم هي التمهيد لإقامة دولة دينية، حتى لو تطلّب ذلك الموت، لأن الموت، وليس الحياة، هو أسمى أمانيها،كما تشدّد شعاراتها. في سياق التثقيف بهذه المقولات، لم تعد لأية صورة أو وثيقة شخصيَّة أهمية تذكر، مهما كانت قيمتها.

ذبل اهتمامي بالصّور والطّوابع، ومسودات تمارين كتاباتي الأولى، وغيرها من أوراقي وأشيائي الخاصّة. حتى في زواجي سنة 1977، ومن قبله عقد القران، أهملت عمدًا تصوير هذه المناسبة، إلا أن زوجتي وعائلتها كانوا حريصين على التقاط بعض الصور. مع العلم أنَّ أخوتها لم يكونوا بعيدين عن مدارات الجماعات الإسلاميَّة، لكن تربيتهم المدينية احتفظت بشيء من الحسّ الجمالي، لذلك فشلت تقاليد هذه الجماعات في إطفائه.

في آذار «مارس» من العام 1980، أصدرت مديرية الأمن العامة في بغداد، أوامر مشدّدة بمطاردتي وإلقاء القبض عليّ عاجلًا، بسبب اعترافات انتُزعت تحت التعذيب من بعض الشباب من رفاقي، وأصدرت عليّ فيما بعد «محكمة الثورة» حكمًا غيابيًا بالإعدام حتى الموت في العام 1981. اختنقت يومذاك بعد أن ضاقت عليّ جغرافيا وطني العراق الواسعة، وبادرت إلى جملة تدابير وقائية، أولها التخلّص من كلّ أرشيف الصّور الشخصيّة والعائليّة، فأحرقتها كلّها. وقتها، رغبت زوجتي في أن تحتفظ ببعض صور العقد والزواج، لكنّي مزقتها، وأحالتها محرقتي جميعًا رمادًا. كذلك عمدت إلى إحراق

ما في خزانتي من مقالات الجريدة السرية لحزب الدعوة الإسلامية، الذي كنت منتظمًا فيه، ولم أحتفظ إلا بمقالة مخطوطة مطولة، كتبها مسؤولي في الحزب المرحوم الشيخ حسين معن، بعنوان: «فقه الدعوة»، كانت خلاصة نقاش بيننا حول المشروعية الفقهية للحزب، ومصادر الإلزام والتكييف الفقهيّ لانضباط الأعضاء المنخرطين فيه وطاعتهم لما يصدر لهم من أوامر. لم أجد أفضل من ساحة المنزل الصغير المتداعي، الذي أسكنه على حافة «بحر النجف»، في حزام البؤس والحرمان في النجف، كي أضع هذا النص في عدة أكياس بلاستيكية محكمة وأدفنها بعمق أكثر من متر. لم أدري ساعتها أنَّ دفني لهذا النص سيغيبه عن عالمنا إلى الأبد، مثلما يُغيّب الدفن الموتى في مقبرة النجف إلى الأبد.

بعد هروبي من العراق، استبدَّت بي رغبة التخلّص من كل ورقة أو صورة أو أي أثر مادي يحيل الشرطة السرية إلى نشاطاتي واجتماعاتي، لذلك لم أهتم بالصور أو الأوراق الخاصة، وكنت أتحاشى على الدوام التصوير مع الشباب المنتمين إلى حلقاتي الحزبية، بل أمتنع من التصوير مع من يحضر دروسي غير المعلنة أيضًا التي أقدّمها لتلامذة جامعيين في بيوت أصدقاء.

لبثت في الكويت أربع سنوات، لم أشعر يومًا فيها بالأمان، رغم أني وجماعتي التي أنتمي اليها لم نكن نستهدف تغيير نظام الحكم في هذه الدولة، ولا ننشد تهديدًا للأمن فيها، لأن جهودنا مكرسة لمقاومة نظام صدام الفاشي فقط. كنت مستعدًا في أية لحظة لمداهمة الشرطة السرية والاعتقال، لذلك كنت أمزّق وأحرق كل ما يمكن أن يُظن أنه رأس خيط يدلّ جهاز الأمن على شبكات علاقاتي، ونسيج تنظيماتي، وحلقاتي المتعددة، إذ كنت أدير كلّ أسبوع 24 من الحلقات التّنظيميّة والدّروس التثقيفيّة.

في ديسمبر العام 1983، باغتتنا سلسلة تفجيرات في الكويت، لا نعرف من نفَّذها، حدثت إثرها سلسلة اعتقالات ومطاردات، اضطررت بعدها بأسبوع إلى مغادرة الكويت، بعد أن عرفت بوشاية كاذبة للمباحث من أحد الأشخاص ضدي. وكموقف احترازي، اعتقلت المباحث صاحب الشقّة التي كنت أستأجرها، بوشاية كاذبة أيضًا لشخص عابث، ثم أطلقوا سراحه بعد أيام قليلة. ومن المفارقات أنَّ هذا الرجل الطيب صاحب الشقة، رحمه الله، (توفي قبل سنوات قريبة)، غرق في هلع وكوابيس مزّقته بعد اعتقاله. ولفرط رعبه، قام بنقل مكتبتي إلى الصحراء، وأحرق كلّ الكتب فيها، حتى تفاسير القرآن. وهي مكتبة تضمّ كتبًا ليست محظورة، إذ اشتريتها كلّها من مكتبات الكويت، تجاوز ثمنها بمجموعها 2000 دولار.

قبل مغادرتي الكويت، اتخذت إجراءً وقائيًا أحرقتُ فيه ما اجتمع لديّ من صور ادّخرتها كذكرى عطرة من رحلات أداء مناسك الحج والعمرة، خشية تسربها إلى المباحث، وكي لا يُتهم بعض الأشخاص الأبرياء من الأصدقاء بتهم باطلة فيقع ضحية، كما يحدث في كل موجات الاعتقال في بلادنا. هكذا بعد أربع سنوات، يحل وعد المجزرة الثانية لبقايا ذاكرتي الموشومة، وبقايا أرشيفي الصّغير جدًا.

باتت هذه الحالة من عاداتي المزمنة، إذ لطالما سارعت

إلى تمزيق رسائل أو أوراق وحرقها، حيثما كنت وكانت. وأحيانًا، بعد مضي سنوات، في مناسبة ما أتذكّر قضية مهمة أوردتها رسالة من صديق، أو بعض الأوراق التي تتضمن موضوعًا يهمني اليوم، وأحتاج الاستناد اليها كوثيقة، فأفتش عنها لكن دون جدوى. يبدو أنَّ أرشيفي كان ومازال ضحية كوابيس مدفونة في أعماقي، يعلنها صوت كأنه يخيرني: «بين أن أُعْدَمَ أو أن أَعْدِمَ أرشيفي».

بعد هذه المجزرة، لبثت سنوات طويلة في المنفى أمتنع عن التَّصوير. ذاكرتي الجريحة تنزف حينما يدعوني أي شخص إلى التصوير، ولا أبالغ إن قلت إني مكثت عدة سنوات تنتابني حالة يمكن أن أنعتها بـ»فوبيا الكاميرا»، حتى انتقلت حياتي رغمًا عني إلى طورها الوجودي الجديد، بمعية الطَّور الوجوديّ الجديد للعالم، الذي أنجزه الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات وغيرها، وإنتاج هذه التكنولوجيا لعالم بديل، انهارت معه الكثير من الخصوصيات الشخصية، وأمست أكثر الأسرار سرية مفضوحةً، شئنا أم أبينا، ولم يعد منطق الحدود الحسية الفيزيقية فاعلًا، وإن ولدتْ في سياق عالمنا البديل حدود تشبهه، هي حدود رمزية لا مادية، ربما هي أقسى من الحدود الماديّة.

عبد الجبار الرفاعي: مفكر وكاتب عراقي، متخصص في الفلسفة الإسلامية، له رؤية فلسفية حول الإصلاح ومناهج التفكير الديني، مدير مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، ومستشار تحرير لمجلات ودوريات متعددة، يرأس تحرير مجلة قضايا إسلامية معاصرة منذ إصدارها في العام 1997.

صفحة الفايسبوك: qahtanee

أول بعثة بحرينية للجامعة الأمريكية

قراءة في تقرير حكومة البحرين السنوي للعام 1348هـ (1930 - 1931م)

علي السلاطنة

تشكّل التّقارير السّنويّة لحكومة البحرين مصدرًا مهمًّا من مصادر تاريخ البحرين. وتحتوي هذه التقارير ملخّصًا للإيرادات والمصروفات والميزانيّة السنويّة، إضافةً إلى معلومات عن مختلف نواحي الحياة، كالقضاء والتعليم والزراعة والشّؤون الصحّية والبلديات والشرطة والجمارك والتجارة، فضلًا عن أبرز الأحداث التي شهدتها السّنة. وفي العام 1987م، قامت جامعة كامبردج البريطانية العريقة بنشر هذه التقارير في مجموعة أرشيفيّة مكوّنة من ثمانية مجلّدات، تحت عنوان «1970-Bahrain government Annual Reports 1924».

وللتقارير الحكوميَّة السنويَّة بين عامي 1926-1956م، أهميَّة خاصّة تكتسبها من كاتب التقارير في هذه الفترة، وهو مستشار حكومة البحرين، تشارلز بلجريف، الَّذي كان يسيطر على مفاصل الحياة كافة في البحرين طوال 30 عامًا، فقد «جاء في بداية الأمر لينظّم مداخيل الدولة، فأصبح، تدريجيًا، رئيسًا لقوة الشّرطة، وعضوًا في المحكمة المشتركة، ومراقبًا عامًا للتّعليم وغيره من إدارات الدَّولة»[1]، وهو كما وصفه الرحالة رودريك أوين الذي زار البحرين أثناء حركة هيئة الاتحاد الوطني في منتصف الخمسينات: «كان باستطاعته القبض على أيّ شخص، باعتباره رئيسًا لسلك البوليس، ومحاكمته في المحاكم القضائية باعتباره رئيس سلك القضاء، وإصدار الحكم عليه والنظر في طلب الاستئناف المقدّم منه ضد الحكم، باعتباره رئيس محكمة الاستئناف»[2]. ولا تخلو هذه التقارير من مشاعر بلجريف وآرائه الّتي تعكس شخصيّته السلطويّة، وهذا ما سيتّضح من خلال هذه القراءة الموجزة للفصل الخاصّ بالتعليم من تقرير حكومة البحرين السنوي للعام 1349هـ (1930-1931م).

يعرض هذا المقال ثلاث أفكار؛ الأولى تحليل فقرة تتناول ظروف التّعليم ومبرّرات تعيين فائق أدهم ناظرًا للتعليم من قبل بلجريف، والثانية تحليل فقرة تتطرق إلى موقف بلجريف من البعثة الجامعية الأولى العام 1928م، والثالثة

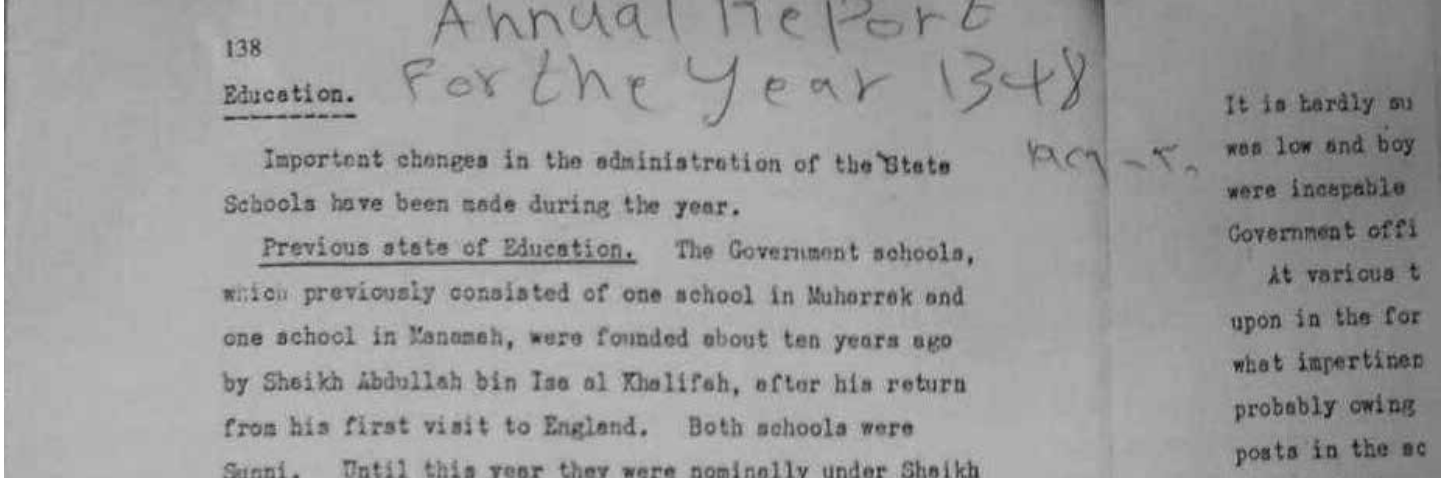
138

Education.

Annual Report For the Year 1348

Important changes in the administration of the State Schools have been made during the year.

Previous state of Education. The Government schools, which previously consisted of one school in Muharrek and one school in Manamah, were founded about ten years ago by Sheikh Abdullah bin Isa al Khalifah, after his return from his first visit to England. Both schools were Sunni. Until this year they were nominally under Sheikh

It is hardly su
was low and boy
were incapable
Government offi
At various t
upon in the for
what impertinen
probably owing
posts in the se

استعراض مواقف بعض المثقّفين الوطنيين من تعيين فائق أدهم ناظرًا للتعليم.

أوضاع التّعليم وظروف تعيين فائق أدهم

شكّلت الأفكار القوميّة المتداولة في مدارس البحرين بالنّسبة إلى الإنجليز أفكارًا مسمومة. وفي هذا الإطار، حذَّر الوكيلُ السّياسيّ حاكمَ البحرين الشيخ حمد بن عيسى بن علي (حكم من 1923 إلى 1942م)، من مهاجمة المدرّسين العرب للحكومة، وتأثّر التلاميذ بمدرّسيهم في هذا الأمر[3]، وخصوصًا أنَّ التّعليم النّظامي في البحرين كان أهليًّا، وليس حكوميًّا، حيث كان هناك مجلسان أهليّان يديران المدارس، واحد للسنّة، وواحد للشّيعة، إلا أنّ السّلطات حاولت فرض الوصاية على التعليم منذ بداياته، وهذا ما أدّى إلى فصل أوّل مدير لمدرسة الهداية الخليفيّة حافظ وهبة وترحيله.

بعد وصول بلجريف إلى البحرين، وتولّيه منصب «المستشار المالي لحكومة البحرين»، بدأ يوسّع سلطاته بالتدريج، ووضع عينه على التعليم، وتدخّل فيه من خلال تعيين اللّبناني فائق أدهم ناظرًا للمدارس، وكان هذا التدخّل تحت ذريعة الفساد الّذي كان يحيط بالعمليّة التعليميّة. يتّضح ذلك من خلال تقرير الحكومة للعام 1349هـ (1930-1931م)، ومما جاء فيه: «أغلب المدرّسين تمّ تعيينهم من قبل مدير مدرسة المحرق[4] الّذي قدّم عددًا من معارفه الشّخصيّين. عضو آخر في المجلس، وهو ابن سيئ السمعة الشيخ عبد الوهاب الزياني[5]، جهَّز عددًا كبيرًا من المدرّسين من معارفه الشّخصيّين. وصلت المحسوبيّة إلى درجة غير طبيعيّة، والرواتب لم تكن تعطى بحسب كفاءة المدرّسين، بل بحسب صداقتهم مع المدير وواحد أو اثنين من أعضاء المجلس. ليس من المستغرب أن يكون مستوى التعليم منخفضًا، وأن يكون الأولاد الّذين درسوا في المدرسة عدة سنوات، عاجزين عن القيام بأبسط الأعمال في أيّ مكتب من مكاتب الحكومة»[6].

وهنا، تستوقفنا عدة ملاحظات أمام هذا النّصّ:

أوّلًا: في هذا النصّ اتهام صريح لمدير مدرسة المحرق (الهداية) بالفساد، لأنه قام بتعيين مدرسين من معارفه. والاتهام نفسه بالفساد والمحسوبية وجّه إلى عبد الرحمن الزياني، وإلى شخص آخر من أعضاء مجلس التعليم لم يذكر اسمه أو صفته، في حين لا يوجّه بلجريف أية انتقادات إلى رئيس المجلس الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة، أخ الحاكم، باعتباره المسؤول الأوّل عن التّعليم بحكم منصبه.

ثانيًا: وصف بلجريف الشيخ عبد الوهاب الزياني بأنه شخص سيئ السمعة، وهذا الوصف يشير إلى أن بلجريف يضع الخصومات السياسية القديمة بعين الاعتبار في تحركاته في ميدان التعليم.

ثالثًا: انتقد بلجريف تشكيل المجلس من أشخاص مختارين على أساس ثروتهم وموقعهم الاجتماعيّ وليس على أساس تعليمهم. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ بلجريف لا يخفي إعجابه بشخصيَّة الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة ــ ذي التّعليم البدائي والذكاء الخارق، كما يصفه بلجريف نفسه[7] ــ فمن الواضح أنه تولّى منصبه بحكم مكانته الاجتماعيّة، بالتالي، فإنّ بلجريف لا يوجّه أيّ انتقادات لتعيين شخص ذي تعليم بدائي على رأس مؤسّسة تعليميّة!

رابعًا: أرجع بلجريف تردّي مستوى الدراسة إلى الفساد الَّذي يحيط بالمشروع، والَّذي تسبّب فيه المدير وبعض أعضاء المجلس، إلا أنه لم يحمّل رئيس المجلس عبدالله بن عيسى آل خليفة أية مسؤوليّة عن تفشّي الفساد في المدارس، وهو مسؤول عن ذلك بحكم منصبه.

في مذكّراته، حمل بلجريف على الطّلبة، واتّهمهم بأنهم لا يسعون إلى اكتساب المعرفة، وصرح بأنه لم ير خلال ثلاثين عامًا من عمله في البحرين، إلا اثنين أو ثلاثة من الطلبة الراغبين في اكتساب العلم والمعرفة، واعتبر التعليم بمثابة الألم المستديم في الرقبة، ودائمًا ما كان يتساءل عن جدواه[8]، وهذا يعني أنّ بلجريف يرى أنّ هناك خللًا في العملية نفسها، وخصوصًا أنه يتحدّث هنا عن التّعليم بشكل عام، بما فيه الفترة اللاحقة، التي تسلّمت فيها الحكومة إدارة التعليم بعد سنوات الإدارة الأهليّة، إلا إذا كان بلجريف يتهم نفسه أو الحكومة بالفساد والتّسبّب في استمرار ضعف مخرجات التّعليم.

من ناحية ثانية، نرى أنَّ بلجريف اختار الطالب راشد الزياني للعمل في مكتبه[9]، وهذا الطالب هو ابن عبد الرحمن الزياني وتلميذ عثمان الحوراني، اللّذين اتهمهما بالفساد، كما أنه حفيد عبد الوهاب الزياني السيئ الصيت، بحسب وصف بلجريف، وهذا تناقض آخر مع ما أثبته بلجريف في تقريره، وخصوصًا أنه يذكر أنّ الطلاب لا يستطيعون القيام بأبسط الأعمال في أيّ مكتب من مكاتب الحكومة!

خامسًا: فيما يتعلّق بالمحسوبيّة في تعيين الأقارب والأصدقاء، فهذا حقّ أريد به باطل، فهذه العلاقات كانت طبيعية في ضوء ضعف وسائل الاتصال آنذاك، وهنا نلاحظ عدة نماذج في هذا المجال، فالقسّ زويمر يشترك مع زوجته في إدارة مدرسة الإرساليّة، والشيخ عبد الوهاب الزياني وابنه عبد الرحمن كانا في إدارة مشروع التعليم في بداياته، وكذلك الشيخ حمد بن عيسى بن علي حاكم البلاد[10]، وأخوه الشيخ عبدالله، وابن عمهم

الشيخ إبراهيم بن محمد، كانوا أعضاء في إدارة مشروع التّعليم، وبلجريف نفسه يعمل في الحكومة مع زوجته وابنه جيمس (حمد)، وعندما أحيل إلى التقاعد، بقي ابنه يعمل مع الحكومة[11]، فهذه العلاقات كانت طبيعيّة، ولا بدّ منها، وكذلك هو الحال مع فائق أدهم الّذي عيّن ناظرًا للتّعليم ـــ في هذه الظّروف ولهذه الأسباب أو الذرائع ـــ كما عيّنت زوجته سنيّة أدهم مديرةً لمدرسة المنامة للبنات.

بلجريف وأوّل بعثة جامعيَّة في تاريخ البحرين

بعد ثماني سنوات من بداية التّعليم النّظامي في البحرين، برزت فكرة إرسال بعثة من الطلاب المتميّزين دراسيًا لاستكمال دراستهم في الخارج، وقد كانت وجهتهم هي الجامعة الأميركيّة في بيروت، وتم اختيار الطلاب من قبل مدير مدرسة المحرق عثمان الحوراني، وتكوّنت البعثة من كلّ من:

1. عبدالله بن ابراهيم آل خليفة.
2. خليفة بن محمد آل خليفة.
3. حمد بن عبدالله آل خليفة.
4. محمد بن الشيخ قاسم المهزع.
5. راشد بن عبدالرحمن الزياني.
6. عبدالعزيز بن سعد الشملان.
7. عبدالرحمن بن قاسم المعاودة.
8. عبدالله بن محمد الباكر. (على حساب والده)[12]

وقد أفرد بلجريف لهذه البعثة فقرة في تقريره، جاء فيها:

«الطلاب السّبعة من مدارس البحرين الَّذين درسوا لمدة سنتين على نفقة الحكومة في جامعة بيروت، كانت تقاريرهم جيدة. ثلاثة منهم من أبناء الشيوخ، وقد قضوا عطلتهم الصيفيّة الفائتة في البحرين. معرفتهم باللغة الإنجليزيّة بدا عليها التطوّر بشكل ملحوظ. بدون شكّ، فإنّ نجاح هذه التجربة سوف يكون ملحوظًا عندما يرجع الأولاد في نهاية الفصل الحالي. أربعة منهم سوف يعيّنون في المدارس كمديرين.

تكلفة هذه التّجربة كانت عالية، وعلى الرغم من أنّ العديد من هؤلاء الطلاب أبناء عوائل غنيّة، فإنّ الحكومة دفعت كلّ شيء لهم. تم اختيار الطلاب في وقت إجازتي. وفي رأيي، فإن اختيار اثنين أو ثلاثة منهم لم يكن موفقًا. لقد كانوا أبناء أشخاص معروفين بإيذائهم وعدائهم

للحكومة، وقد تم اختيارهم من قبل أحد المديريْن اللذيْن تم فصلهما. وفي أثناء الإضراب، أرسل أربعة منهم إلى المديرين برقية تعاطف وتأييد. من المأمول أن لا يشير ذلك إلى سلوكهم المستقبلي»[13].

وهنا تستوقفنا عدة ملاحظات في هذا النصّ:

أولًا: إنَّ تقارير الطلاب كانت جيّدة، وهذا يخالف ما ذكره بلجريف في أوّل تقريره، من أنَّ طلاب المدارس لا يحسنون عمل شيء بسيط في مكاتب الحكومة. كما أنّه ذكر أن اختيارهم كان موفّقًا، وكانوا جديرين بهذه البعثة.

ثانيًا: يركّز بلجريف على تعلّم اللغة الإنجليزية، ويولي ذلك اهتمامًا خاصًا، وكأن البحرين في ذلك الوقت لا تحتاج من المعارف أي شيء غير اللغة الإنجليزية!

ثالثًا: يعتقد بلجريف أنّ هناك من لا يستحقّ أن يكون ضمن هذه البعثة، رغم أنّ تقاريرهم جيّدة، ولا يقدّم أية أسباب موضوعية لعدم استحقاقهم لها. وكلّ ما يمكن أن نفسّر به عدم الاستحقاق هو تحميل الأولاد ذنب انتمائهم إلى عائلات معادية للحكومة!

رابعًا: إضافةً إلى انتماء الطّلبة إلى عوائل معادية للحكومة، بحسب تصنيف بلجريف، فيمكن اعتبار اختيارهم دون استشارة بلجريف سببًا آخر لسعيه إلى إفشال البعثة، وخصوصًا أن الاختيار تم من قبل عثمان الحوراني؛ المدير المفصول الذي قاد إضرابًا ضد تعيين فائق أدهم ناظراً للمدارس، لأنه كان يمثل أداة بيد السّلطة للسّيطرة على التعليم.

خامسًا: يبدو أنّ ما ذكره بلجريف من أمر برقيات التعاطف الّتي أرسلها الطلاب لمساندة معلّميهم في الإضراب، هو من باب تدعيم الحجّة بأن هؤلاء الطلبة سيسبّبون متاعب للحكومة، وبالتالي لا بدّ من إيقاف البعثة.

بقي أن نشير إلى أنَّ البحرين توقّفت عن إرسال البعثات الطلابية إلى الجامعات حتى العام 1945م، حيث أُرسِل 16 طالبًا إلى مصر. ومن المضحك المبكي أنَّ بعثة 1945م، قد أوقفت بسبب تأثر الطلاب بالأوضاع السياسية في مصر، ومشاركتهم في التظاهرات، واعتناق بعضهم لأفكار سياسيّة دينيّة (ربما يكون المقصود هو فكر الإخوان المسلمين)، إضافةً إلى فشل البعض دراسيًا ورسوبهم! وهنا، يحقّ لنا أن نتساءل عن معايير اختيار الطلاب المبتعثين، وخصوصًا أنّ بلجريف قد انتقد معايير اختيار طلاب بعثة 1928م[14].

موقف المثقّفين الوطنيّين من تدخّلات بلجريف في التّعليم وتعيين فائق أدهم

1. إبراهيم العُرَيِّض: هو شاعر البحرين الكبير، ومن أعلام الأدب والثقافة العربيّة في القرن العشرين. كان يعمل مدرّسًا للغة الإنجليزية في مدرسة الهداية ـ فرع المنامة، قبل أن ينتقل للعمل مديرًا مساعدًا في المدرسة الجعفرية، إلا أنه فصل من عمله بجرة قلم من قبل ناظر التعليم فائق أدهم الذي عيّنه بلجريف، وكان سبب فصله هو خلاف أدهم مع مجلس التّعليم الجعفري، إن صحّ التعبير.

لقد كان العُرَيّض مسافرًا لنشر ديوانه الشعري الأول «الذكرى» في العام 1930م، وعندما عاد تفاجأ بفصله

من العمل! فما كان منه إلا أن أسّس مدرسةً خاصّة «المدرسة الأهلية»، وبدأ يعلّم فيها بنفسه وبمساعدة من تلاميذه (المتخرجين)، بعد أن رفض وصاية فائق أدهم وبلجريف، وعبّر عن ذلك في إحدى قصائده، فقال واصفًا فائق أدهم:

جاهـلٌ قـام بالأمـور اعتسـافًا ... كلّفتـه الظّـروف مـا لا يطيـق
يتثنـى عـلى العبـاد غـرورًا ... واختيـالًا إذا مـشى لا يفيـق
أضمـر السـوء للبـلاد نفاقًـا ... مـا لـه مكـره بـه لا يحيـق
بطلـت دعـوى الزعامـة فيـه ... أفهـل نـاب أمـره التحقيـق
طربـت روحـه الشـقيّة لمـا ... قـام في زهـرة البـلاد حريـق

2. عبدالرحمن بن قاسم المعاودة: هو أديب البحرين وشاعرها، وأحد أعضاء البعثة التعليميّة الأولى إلى الجامعة في بيروت، الّتي وقف ضدها بلجريف. عندما أنهيت البعثة، عُرِضَ عليه العمل في التعليم الحكوميّ، فرفض وأسَّس مدرسته الخاصّة «مدرسة الإصلاح الأهليّة»، ثم أسّس مدرسة الإرشاد. وقد قال في هجاء فائق أدهم عندما أقيل من عمله:

إلى أيـن اعتزمـت إذًا ذهابـا ... لتمـلأ مـا تحـلّ بـه خرابـا
طُـردت فـكان طردك خـير فأل ... يبـشر للّـذي بالعـبّ طابـا
يطيـب لنـا فراقـك يا ابـن آوى ... وكـون مصـير مـا تجنـي يبابـا
بغـاة السـوء ويحكـم أفيقـوا ... فـإن مريـده بالنـاس خابـا
وإنّ اللـه يـأبى أن تكونـوا ... عـلى حـال تضيـق بـه اكتئابـا
تبيعـون الضمائـر بالكـراسي ... فتجنـون الكراهـة والسـبابا
ذهابًـا عاجـلًا يـا وغـد عنـا ... ذهابًـا لا نطيـق بـه إيابـا
فأنـت نزلـت بالبحريـن ضيفًـا ... ثقيـلًا مـا عرفـت بـه صحابـا
فـكل رجالهـا يأبـون قربًـا ... إليـك فلؤمك المشـهور عابا[15]

3. عبدالعزيز الشَّملان: مناضل وطني كبير، عضو هيئة الاتحاد الوطني في الخمسينات، وهو من طلاب بعثة بيروت. رفض العمل في التعليم الحكوميّ واتّجه إلى التّجارة.

4. محمّد علي التاجر: العلامة المؤرخ صاحب كتاب «عقد اللآل في تاريخ أوال». أسّس مدرسة خاصة عمل فيها برفقة أخيه سلمان التاجر، وعبّر عن رأيه صراحة حين أرّخ لتاريخ المعارف في البحرين في كتابه المذكور، قائلًا: «سارت هذه المدارس بجدٍّ واجتهاد، وبدأت آثار المجهودات تظهر بمستقبل علميّ زاهر يسير دائمًا إلى الأمام، لولا ما أصابها من العثرات أخيرًا، وذلك لما قام به ذلك الرجل المتعسّف الفظّ المتغطرس، السوري المدعو إبراهيم فائق أدهم، الذي أسند إليه نظارة المعارف، وما سببه للمدارس من التقهقر والانحلال الذي كاد يقضي على تلك الأتعاب بالضّياع»[16].

ختامًا، لا بدّ من أن نشير إلى أنَّ فائق أدهم قد فصل من عمله، وتم ترحيله من البحرين برفقة زوجته، بسبب فساده، فالبعض يتّهمه بالضّلوع في قضايا اختلاس أموال المقاصف المدرسية[17]، والبعض يرجّح أنّه ارتكب أفعالًا غير أخلاقيّة[18]. والحاصل أنّ بلجريف لم يذكر شيئًا عن هذا الموضوع في تقاريره الرسميّة ولا في مذكراته الشخصية السّريّة، وهذا الأمر قد يدلّ على أنّه كان خجلًا من نفسه ومن ثقته بفائق أدهم الّذي فشل في تطوير التعليم، وغادر بفضيحة تمسّ شرف هذه المهنة.

خلاصة

إنّ نزعة بلجريف إلى التحكّم، أقصت طليعة المثقّفين الوطنيّين من ميدان التعليم الرسمي، وسلّمته إلى شخص كان ينزع نحو الفساد، مثل فائق أدهم. وإنّ هذا الإجراء ساهم في تراجع التعليم بصورة عامّة، وسبّب تراجع التعليم الجامعي 20 عامًا على الأقل، فضلًا عما جلبه من مشاكل وعقد مستمرّة حتى اليوم، فبلجريف لم يكن يبحث عن تطوير التعليم بقدر ما كان يبحث عن السيطرة عليه وتقييده، وهذا واضح جدًا في مسألة حرمان الطلبة الجامعيين من إكمال دراستهم لأسباب سياسية، كما أنّ هذه العقلية السلطويّة فشلت في دمج التعليم السني والشيعي دمجًا سليمًا. ولذلك، فإنّ الاشكالات المتعلّقة بمناهج الدين والتاريخ مستمرة حتى اليوم، إضافةً إلى مشكلة معايير توزيع البعثات الدراسيّة وأسسها، والتأثير السياسي فيها، فضلًا عن الأساليب الاستبداديّة الّتي اتّبعها بلجريف في التعامل مع القضايا التربويّة.

علي السلاطنة: باحث من البحرين، بكالوريوس تاريخ، مهتم بتاريخ البحرين المعاصر، يعمل حاليا على توثيق تاريخ قرية النعيم البحرينية.

صفحة الفيسبوك salatina

المصادر والمراجع:

الخوري، فؤاد إسحق، القبيلة والدولة في البحرين، مركز أوال للدراسات والتوثيق، بيروت، 2015م، ص 159.

1. Roderic, Owen: The Golden Bubble. Collins .Clear-Type Press, London,1957. p72

2. الشاعر، سوسن والجاسم، محمد: البحرين... قصة الصراع السياسي 1904-1956م، بدون ناشر، 2000م، ص 113، 122.

3. كان مديرها عثمان الحوراني، سوري الجنسية، شارك في الثورة السورية الكبرى، وصدر بحقّه حكم بالإعدام في سوريا، وقد فرّ إلى العراق، حيث تلقّى عرضًا بالعمل في مدارس البحرين.

4. عبدالوهاب بن حجي الزياني، من مواليد المحرق 1863م، تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب في البحرين. وفي العام 1879م، أرسله والده إلى الأحساء لطلب العلوم الشّرعيّة، ثم سافر إلى العراق في العام 1883م لاستكمال دراسته. بعد عودته إلى البحرين، اشتغل بنشر العلوم الدينية وتعليم القرآن واللغة العربية وإمامة الصلاة. وعمل في تجارة اللؤلؤ، وكان هو وولده عبدالرحمن من أعضاء هيئة التعليم الأهلية التي أسّست مدرسة الهداية العام 1919م.

5. في العام 1923م، شكّل مع مجموعة من ممثلي القبائل السنة «المؤتمر الوطني البحراني». وكان الغرض من هذا المؤتمر مناهضة الإصلاحات التي قام بها المعتمد البريطاني في البحرين الميجر ديلي، ونتيجة لذلك، قبض عليه وعلى رفيقه أحمد بن لاحج البوفلاسة، ونفيا إلى مومبياي - الهند. توفي في الهند 1925م. المحادين، عبدالحميد، خطوات باتساع الأفق، وزارة التربية والتعليم في مملكة البحرين، المنامة، 2010م، ص 40.

6. Bahrain Government Annual Report for 1349. p-p 138-139.

7. Ibid, p142.

8. بلجريف، تشارلز، مذكرات بلجريف، ترجمة مهدي عبدالله، دار البلاغة، بيروت، 2002م، ص 146، 147، 277.

9. الزياني، عبدالرحمن، ذكريات وتاريخ، بدون ناشر، 1994م، ص 115.

10. كان ذلك قبل توليه الحكم.

11. بلجريف، مصدر سبق ذكره، ص 388.

12. المحادين، عبدالحميد، خطوات باتساع الأفق، ص 139.

13. Bahrain Government Annual Report for 1349. p145.

14. الخليفة، مي محمد، مائة عام من التعليم النظامي في البحرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م، ص 374، 375. والكلام مترجم من التقرير الحكومي للعام 1945م.

15. المحادين، مرجع سبق ذكره، ص 173، 174، 181..

16. التاجر، محمد علي، عقد اللآل في تاريخ أوال، مؤسسة الأيام للطباعة والنشر، المنامة، 1994م، ص 26.

17. المحادين، مرجع سبق ذكره، ص 180.

18. الخليفة، مرجع سبق ذكره، ص 311.

المركز العلمي للرسائل والأطاريح
Scientific Centre for Theses and Dissertations

دور تشارلز بلجريف في البحرين بين عامي 1926 - 1957

سلسلة رسائل الماجستير

متابعات

وسام السبع

دور بلجريف في البحرين بين عامي 1926 – 1957م في رسالة ماجستير

صدر عن المركز العلميّ للرّسائل والأطاريح SCTD، دراسة حول الدّور السياسيّ والإداريّ لمستشار حكومة البحرين، تشارلز بلجريف، في الفترة بين عامي 1926 – 1957م. هذه الدّراسة عبارة عن رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قدِّمت لجامعة البصرة، في 440 صفحة، لتكشف النّقاب عن دور المستشار البريطاني وأثره في السّياسة البحرينيّة، لتبوّئه مناصب عديدة، تجسّدت في إدارة الأمور الماليّة والقضائيّة والعسكريّة والتّعليم، فضلًا عن المرافق الأخرى الأقلَّ شأنًا في البلاد، حتى إنه صار بمثابة الحاكم الفعلي، وهذا هو وجه الاختلاف بينه وبين المستشارين الآخرين، ذلك أنَّ صلاحياتهم اقتصرت على جانب معيَّن من شؤون الدولة، أي كان دورهم منحصرًا في حدود الاستشارة، كنوع من التقليد السياسي. كما تأتي هذه الرسالة في الواقع مكمّلة للرَّسائل السابقة.

لم تخلُ مسيرة البحث من صعوبات، نظرًا إلى قلّة مصادره، ما شكّل شيئًا من الغموض فيه، ولا سيما فيما يتعلق بالسّيرة الذاتيّة لبلجريف ودوره في المجال الصّحّي. فهذه الخدمة الحيويّة، لم تذكر المصادر تفاصيل عنها أو إشارات توضح سبب تعثّرها أو تقدّمها، كما أنّ بلجريف لم يسعَ إلى العناية بها، ولم يخصّص جزءًا من وقته للوقوف على مستوى أدائها، ولعلّ ذلك يعود إلى معتقده التّبشيريّ وتعاطفه مع الإرساليّة. ولم توضح المذكرات أيضًا أية تفاصيل مهمّة توافق ما سنطرحه لاحقًا أو تعارضه.

كانت المراسلة لدولة البحرين، وتحديدًا للمؤسسات الأكاديمية، كجامعة البحرين، ومركز الوثائق، والمكتبات، ومنظمات ثقافية، التمس منهم الإرشاد للوصول إلى معلومات أدق وأكثر شمولًا، في ضوء الرسوم المحددة، للاستفادة من خدماتهم المكتبية، لكن هذه المؤسسات لم تتعاون مع الباحثين، عدا رئيس تحرير مجلة البحرين الثقافية،

الكاتبة مي محمد الخليفة، التي بعثت كتابها المذكرات، وتجاوزت فيه جانبًا من الصعوبة. وفي الجانب الآخر، حاولنا في الفرض والاستنتاج، ربط الحدث مع الأسباب، لتوضيح دور بلجريف في مسألة المطالبة الإيرانية، ولا نعلم أكان عمدًا إسقاطه من المذكرات أم أنها غير مستوحية لتدوين بلجريف أصلًا!

وعلى هذا الأساس، أسفرت النتيجة عن الشكل الذي آل إليه تقسيم الرسالة المؤلفة من أربعة فصول. يتناول الفصل الأول نشأة العلاقات البريطانية البحرينية وتطوّرها حتى العام 1923، وهي مبنيّة على أسس غير طبيعية، وإنما أحكمت في اتفاقيات وانتزاع مكاسب لصالح بريطانيا، الّتي تجاهلت حق الحكومة البحرينية والشعيب من هذه الرابطة غير المتكافئة، الّتي تحدّدت بمنظور قناعات المعتمدين والمقيمين السياسيين إلى حكومة الهند، لكي تبرز الصياغة بهذه الصورة.

وقد تطرق هذا الفصل إلى العلاقات البريطانية البحرينية في عهد الشيخ محمد بن خليفة، حيث عانت البلاد الكثير من التدخلات البريطانية، التي كانت نتيجة حتمية لسياسته غير العقلانية وأسلوبه التخبطي. ومنه أعطى لبريطانيا مرارًا مبررات للتدخل واستحصال التنازلات المادية والرمزية، وفق تقديم اعتذار على ظهر سفينة حربية بريطانية، ومنه إشعار لمدى الهيمنة لاستبداله كحاكم. وعلى ضوء التدخلات البريطانية (1869 – 1923)، كشفت الحقبة عن دور السياسة البريطانية وعلاقتها مع البحرين، ومن خلالها تدبرت ذريعة خلعت على ضوئها حاكمًا، لتُنَصّب ابنه مكانه بصفة مؤقتة حتى وفاة الحاكم الوالد، ومن خلال ذلك، استجد أمامها مجال آخر، وهو استحداث منصب المستشار، الآلية الجديدة، فأرادت بريطانيا من ورائها تطبيق الإصلاحات، وعلى أساسها الذريعة الأخرى لعزل الشيخ عيسى بن علي، وعدّت بقاءه أمرًا مفروغًا لابنه الشيخ حمد الذي استجاب الطرح والنصح البريطانيين.

أما الفصل الثاني، فتناول السنوات الأولى لتوليه المستشارية (1926 – 1932)، وركز على دور بلجريف في المجال القضائي والصحي، وموقفه من المفاوضات مع شركات النفط، وأخيرًا دور بلجريف في المجال التعليمي والثقافي. وتنبع أهمية الفصل من فهم أسلوب بلجريف في الإدارة، والكشف عن حدود سلطته ومسؤوليته، والوقوف على الجوانب الخدمية، رغم أنّ أغلبها لا تمت إلى عهد بلجريف بصلة، وإنما طورت مع الوقت، وأخذت جانب الدعم الحكومي، وبالأخص في الجوانب الصحية والتعليمية والثقافية. أما الجانب القضائي، فلم يضف إليه شيئًا من التطور، عدا استحداثات أدخلها بلجريف، وهي مسائل فنية لا تحسب على الإطار التنظيمي والهيكلي الذي أُسِّسَ القضاء عليه. وهذا الأمر يرجع إلى أن هذا الجانب بحدّ ذاته، عكس أهم وجه للتدخل البريطاني، وحكم في اتفاقيات لا تسمح باستبدالها، كما في المفاوضات مع شركة النفط، والخسائر المالية التي سببتها للبحرين، وتقيّدها في اتفاقية جنى أرباحها أصحاب الشركات، وفشل بلجريف كمفاوض ومستشار في إدارة المسائل القانونية، رغم أنها من صميم تخصّصه، وتوظيفها لصالح البلاد التي يتولى إدارة شؤونها.

وكرس الفصل الثالث من الرسالة لموضوع (التطورات السياسية في البحرين 1932 – 1942). تعد هذه الفترة

مرحلة مهمة في تاريخ البحرين، وتكمن أهميتها في تسلم الشيخ حمد السلطة بصفة ثابتة. سميت هذه الانتقالة «أصالة»، تزامنًا مع وفاة الشيخ عيسى، ولذا اشتمل الفصل على دور بلجريف في التطورات الداخلية في البحرين، فأخذت حيزًا من العهد الجديد ودور بلجريف، سواء في عهد الشيخ حمد نيابة أو أصالة، فهو مقرون في الخدمات. وبدورها، عكست جانبًا جديدًا من التدعيم الحكومي والاهتمام في الخدمات العائدة بالنفع للفرد، وبجهود محلية إذا صح الوصف، وبلجريف في مدة اشتداد الحركة الوطنية.

وقد جاء التركيز على حركتي العام 1932 والعام 1938، ولكلٍ منهما أسبابه. وعلى أثرها، أسهمت في بلورتها بهذا الشكل المختلف جملةً وتفصيلًا لما وصلت إليه الانتفاضات، وفيه عكس الجانب الأهم، وهو دور بلجريف وأسلوب معالجته لهذه الانطلاقة. لم يظهر نوع من السياسة المعتدلة، وإنما جسد أسلوبًا واحدًا في معالجته تلك الأمور، وحالات التدخل العسكري، وعليه أبعدت السياسة البريطانية بلجريف عن دور في المطالبة الإيرانية بالبحرين، ومنحت بريطانيا نفسها الحق بإدارة السياسة الخارجية البحرينية في منظور تحريك الشيخ حمد بالشكاوي، ليكشف شرعية تدخلها في دحض المطالب الإيرانية المستمرة.

وحمل الفصل الرابع عنوان «الأوضاع السياسية التي حجمت البحرين وأسهمت في عزل بلجريف 1942 – 1957». ركّز هذا الفصل على أحداث سياسية أسهمت في انهيار نظام قمعي استبدادي تجسد في شخص بلجريف، وما شهدت فترته الأخيرة من تطور، نظرًا إلى

ارتأى المؤلّف أن يجمع تلك الحوادث مع ترجمة لكلّ من نُكب بها، مع ترتيب تلك الحوادث على القرون الهجرية الخمسة عشر

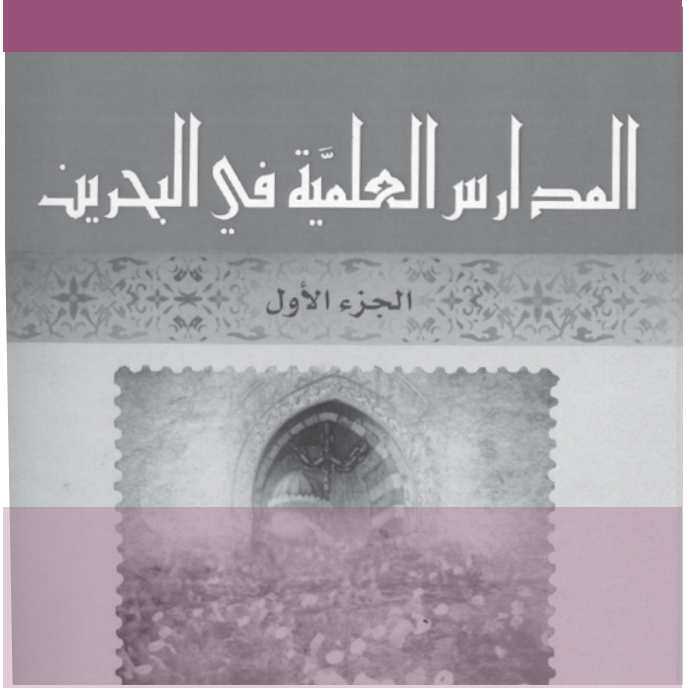

انتزاع الشيخ سلمان السلطة وتفرده بها، ليُظهر نوعًا من الاستقلالية إلى درجة لا تؤثر في علاقته مع بلجريف ومنصبه كمستشار، بل بقي كما في عهد والده، على ضوء طلب الشيخ سلمان منه البقاء إلى جانبه، وفي هذا دليل على أن نهج الشيخ لم يضف فيه نوعًا من التعارض لبلجريف وإنما لبريطانيا. أما دور بلجريف في الخلافات الحدودية مع قطر، فانحصر في جهة التفاوض بهذه المسألة، واستبعاده من جهة المطالبة الإيرانية، ولم يرد أثر واضح له، عدا استصدار إعلان موقع يمنع استخدام المخبر ويعني الهوية، واستمرار الجانب البريطاني في إدارة دفة المباحثات مع إيران في هذا الشأن. أما التطورات الداخلية في البحرين، وأثرها في عزل المستشار، فتلك الأمور كانت تراكمات زمنية، وإفرازات لأسلوب إدارته، وعدم تقبله للرأي الآخر المخالف لوجهته، وحجبه للوسائل التي تفتح المدارك وتسهم في تشخيص الأداء الاجتماعي، ووضع الحلول المنبثقة من الإرادة الجماهيرية، والمتغيرات تلك كانت ضد بلجريف وسلطته، وبالتالي شكّلت نذير خطر على بريطانيا ووضعها، لهذا وجدت بريطانيا الطريقة للسيطرة على الأوضاع، وإنهاء حالة التأزم بعزل بلجريف.

المدارس العلمية في البحرين.. كتاب يتقصى التاريخ الثقافي

صدر عن مركز ابن ميثم للدراسات والتراث كتاب «المدارس العلمية في البحرين»، لرئيس المركز الباحث والمحقق الشيخ محمد عيسى آل مكباس. يقع الكتب في مجلدين اثنين، ويتناول بالدّراسة والبحث أبرز المدارس العلمية في البحرين خلال سبعة قرون، والتي ورد ذكرها في المصادر المحلية وكتب الإجازات والتراث العلمي المخطوط.

وثّق الباحث تسع عشرة مدرسة علمية في البحرين، عبر اعتماد منهجية موحدة، بيّنها الباحث في مقدمته للدراسة، وذلك من خلال تقديم نبذة وافية عن هذه المدارس، وأبرز من أرخ لها، وطريقة التدريس فيها والكتب الدراسية، وتأريخ المدارس من القرن السادس الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري، والمنطقة التي قامت فيها المدرسة كما توضحها المصادر، وذكر تراجم العلماء الدارسين والمدرسين في كل مدرسة علمية وترتيبهم حسب حروف الهجاء، كما ذكر الباحثين الأعلام الوافدين على كلّ منطقة.

وضمّ الكتاب بين دفتيه توثيقًا لمدرسة أبي اصبع، والبلاد القديم، وبوري، وتوبلي، وجدحفص، وجزيرة النبي صالح، والحجر، وسبسب، وسترة، وسماهيج، والشاخورة، وعالي، وفاران، والقدم، وكرزكان، والماحوز، ومقابا، والمقشع، والنعيم.

يذكر أنَّ الشيخ المكباس باحث ومحقّق بحريني، له عدد من الإصدارات التاريخية، وله دور بارز في إحياء تراث علماء البحرين الديني والأدبي. ولد في البحرين العام 1967م، ودرس في المدارس الحكومية، وأنهى جميع المراحل الدراسية. التحق بجامعة البترول والمعادن في الظهران في المملكة العربية السعودية، ومن ثم انتقل منها إلى كلية الخليج التكنولوجية، ولم يكمل الدراسة الجامعية، ثم التحق بالحوزة العلمية في قم المقدسة، فدرس المقدمات والسطوح والسطوح العليا والبحث

الخارج، وحاز شهادة البكالريوس من الحوزة العلمية.

نشر مجموعة من الأبحاث والدراسات في بعض الدوريات والمجلات. من مؤلفات وتحقيقاته المطبوعة: «أزهار الرياض» للشيخ سليمان الماحوزي (7 ملجدات)، و»الذخائر في جغرافيا البنادر» للشيخ محمد علي آل عصفور، و»إجازات علماء البحرين»، و»أدب البند»، و»تعريف في أحوال سادة الأنام» للشيخ راشد الجزيري البحراني (605 هـ)، و»الدرة الغراء في شرح خطبة الزهراء» للشيخ يوسف آل عصفور صاحب «الحدائق الناضرة»، و»فوائد الأسفار في وصف مخطوطات علماء البحرين»، وغيرها.

لبّ اللباب فيما جرى على المكتبات والكتاب

صدر عن مؤسسة دار التراث في مدينة النجف الأشرف كتاب «لبّ اللباب فيما جرى على المكتبات والكتاب» في القرن الهجري الأول، من تأليف العلامة الشيخ شاكر الشيخ محمد القرشي، قدّم له المحقّق الحجّة السيد حسن الموسوي البروجردي، من تحقيق ومراجعة مؤسسة دار التراث، وهو الإصدار الثاني من سلسلة «دراسات تراثية» التي سبق وأطلقتها المؤسسة.

يقع الكتاب في (224) صفحة من القطع الوزيري، ويُعدّ الكتاب دراسة تمحيصيّة حول إتلاف الكتب والمكتبات وحرقها وأسبابه وأغراضه في القرون المنصرمة، حيث رتّب المؤلف هذا البحث وفق القرون، وأورد في كل قرن ما حدث من الإحراق والإتلاف للكتب والمكتبات.

ارتأى المؤلّف أن يجمع تلك الحوادث مع ترجمة لكلّ من نُكب بها، مع ترتيب تلك الحوادث على القرون الهجرية الخمسة عشر. كما ترجم لبعض العلماء الَّذين ألفوا الكثير، ولم يصل إلينا من تآليفهم إلا القليل، ذاكرًا عدد كتبهم والمتبقّي منها، كالمسعودي، والقفطي، والعلامة الحلي، وغيرهم من مشاهير العلماء.

وابتدأ المؤلّف في كتابه بذكر دعوة الإسلام إلى العلم والقراءة والكتابة، كما ذكر الكتب وما قيل فيها من شعر ونثر ومواضيع أخرى تخصّها، إضافةً إلى دعوة النبي الأعظم(ص) وأهل بيته(ع) إلى تدوين الحديث والعلم، وما قام به اتباعهم من نشر العلوم والتأليف، بخلاف المدارس الأخرى التي منعت التدوين، والأدوار التي قام بها الصحابة في منعه، مبينًا حوادث الإحراق والتمزيق والدفن التي جرت على الكتب في القرن الهجري الأول، مستطردًا في ذلك حول حوادث التلف في مكتبات الغرب وروسيا والصين والهند، ووضع في مقدّمة كلّ قرن بعض مشاهير النسّاخين والوراقين وغير ذلك من المعلومات.

وختم المؤلّف فصول الكتاب عند العصر الَّذي ابتدأ فيه التدوين في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني.

يذكر أن مؤسَّسة دار التراث أطلقت سلسلة «دراسات تراثية»، وصدر عنها حتى الآن إصداران هما: «الحياة الفكرية في الحلة خلال القرن التاسع الهجري»، و»لبّ اللباب فيما جرى على المكتبات والكتاب».

وسام السبع: باحث من البحرين، متخصص في التاريخ، أجرى كثير من المقابلات مع اختصاصيين بالتاريخ والتوثيق، صدرت له أربع كتب ويعد أطروحة دكتوره حول

صفحة الفيسبوك Wessam.alsebba

KHALED ALSADO
ROLEX

ذاكرة الصورة

المنامة مشي وسِيَر وصور ودكاكين

حسين المحروس

«المشي كشفٌ. خُلق الإنسان ليمشي وليمشي أيضًا! ليس أفضل من المشي لكشف الطريق».

سيرة المشي

لا تمتلئ عينان بالصّور إن كان صاحبها لا يمشي. ومصوّر لا يمشي لا يُعوّل عليه. قدمان تواقتان إلى المعرفة، تقيمان علاقة معقّدة مع العينين، حتى يشعر المرء أحيانًا بأنهما تتبادلان الأمكنة. تصبح القدم قادرة على الرؤية، والعين هي الّتي تمشي إلى المشهد المقصود. أعني المنامة. أقصد قلبها. ولأكون أكثر تحديدًا، أتكلم عن المكان الذي تمشي فيه مواكب العزاء الحسينيّة في شهري محرم وصفر من كلّ عام. هذه المنامة قبل أن تتّسع ويتّسع المشي فيها.

أتحدّث عن المشي إلى المنامة من بيت منفرد في شارع «أبو العلاء الحضرمي» القريب من باب البحرين. شارع مظلم في الخمسينات، يُضاء بمجموعة من مصابيح الزيت «فنر». طريق يربط أماكن عدّة، يوصل بينها وبين ميناء المنامة «الفرضة». هذه المنطقة مختلطة: مسلمون شيعة وسنة، يهود، مسيحيون، بونيان، سيخ، وديانات أخرى، تتشابه كلّها في البحث عن السّلام. بيوت مفتوحة على بيوت؛ ولا تقسيمات: بيت بن رضي، بيت الجشي، بيت العريض، بيت الصفار، بيت العلوي، وبيت بشمي الذي لا يبعد عن المنامة، وعن درب مواكب العزاء، سوى 400 قدم. المسافة ليست طويلة إلا إذا قيست بحركة العين بالمليمتر الواحد.

معبد الهندوس في العاصمة المنامة وهم جالية تسكن في المنامة والبحرين وفيهم تجار وعمال

يقول الفنان الراحل عزيز زباري: «كنّا ندخل معابد الهنود (البونيان)، ونرى عيون مائهم أسفل الأرض. كنا ننزل إلى عيون الماء عن طريق سلم. وعندما يحتفلون بعيد الألوان، نشاهدهم يتقاذفون بها، ونفرح لذلك، لكنّهم كانوا يميّزون بيننا وبينهم، فلا يقذفوننا بألوانهم. ولم نكن نغضب لو فعلوا.

كان الحمام في سوق المنامة يسرح ويمرح ويتناسل بكثرة، دون أن يزعجه أحد. هنا في المنامة جبرة كبيرة، يخزن فيها الرز والسكر، فيحوم حولها الحمام لالتقاط ما يسقط من الأكياس، وهنا تتجمّع بعض الحيوانات الصغيرة، مثل أبو العريس».

طقس عاشوراء

فعاليات مواكب العزاء ظاهرة مترسخة يشارك فيها الجميع. هناك ألفة بين الكلّ. لا يشعر المتفرج أو المعزي بأنّ ثمة حاجزًا بين الطرفين. علاقات إنسانية أكثر من ممتازة، كان العزاء يمثّل ـ في تلك الفترة ـ بساطة أهل البحرين. حدود الوعي عندهم هي حدود التعاطف مع العزاء، فمأتم الإحسائيين يختلف تمامًا عن المآتم الأخرى في شكل موكبه،

جميع أفراده بملابسهم، يضربون صدورهم، ويردّدون القصائد الحسينية في فرقتين متجاورتين تتجاوبان وتردّ كل واحدة منهما على الأخرى بشعر محفوظ متّفق عليه. وتلمس اختلافهم ذلك عن المآتم الأخرى. مأتم رأس رمان يتميّز بشيلاته «قصائده» المسيّسة، وباقي المآتم كانت تؤدي العزاء بتقاليده وطقوسه البحرينيّة. أحيانًا، تكون هناك غيرة من مواكب عزاء العجم، لأن لديهم فرقة موسيقية لها ألحانها الحزينة.

سيرة الدكاكين

المنامة القديمة أكثرها دكاكين. لم أكتبْ سيرةً واحدةً ليس فيها دكان، حتى ظننت أن سِيَرَ الناس في المنامة تخرج من الدكاكين. الدكان سوق، والسوق أقدر الأمكنة على سعة الصيد والالتقاط. عندما كنت أعدّ كتاب «إذاعة البحرين سيرة الكلام»، وجدتُ إبراهيم كانو «الأستاذ» يلتقط مؤسّسي إذاعة البحرين واحدًا واحدًا في دكاكين باب البحرين. كان أوّلهم عبد الرحمن عبدالله: «جلست مع أحد أقربائي في دكان تجاري نتحدّث ونتفقّد المارين في الشارع الحيوي. ظهر ذلك الإنسان وكأنّه يعرف أين أنا وأين سأكون، ما رأيك لو نجعل صوتك يطير يا عبد الرحمن؟».

سيرة المصوّر الفوتوغرافي عزيز زباري أكثرها دكاكين، «عندما كنت صغيرًا، كان أبي يصحبني إلى دكانه. كنت أحمل بعض البضائع منه. أذكر أنّي كنت أحمل بعض قناني ماء الورد الإيراني من الدكان، مارًا بها بسوق الطواويش بالمنامة مع أخي أحمد. كان زجاج القناني رقيقًا جدًا، لا يتحمل أيّ صدمة، ولو يسيرة، ما جعل أخي أحمد يوصيني مرات بالاحتراس أثناء المشي بها،

في «سيرة خيوط الذهب»، الدكان ملتقى مزاج مطرزي البشوت ابتداءً من خياطة «البروج» وانتهاء بخياطة «المكسر»، حتى ينتهي العمل بالخبان

سوق المنامة بجانب باب البحرين

لكن ما خاف منه وقع. اصطدمت إحداها بجدار أحد البيوت، وبدأ ماء الورد يسيل منها قليلًا قليلًا. دخلت مطبخ البيت خائفًا. وضعتها هناك، ولم أخبر أحدًا.

يقع دكان أبي في وسط سوق المنامة تقريبًا. حوله مجموعة دكاكين لتجار يهود. كنتُ أرى النشاط في دكان أبي لا يهدأ، والبحارة وأهل السفن والغاصة لا ينقطعون عنه، والناس في السوق في قمّة نشاطهم اليومي. أفرح لأنّي أشاهد هذا النشاط. وتزيدني طربًا تلك اللعب التي يحضرها أبي من الهند ويبيعها في الدكان. يمرّ صبّاب القهوة مشيًا على قدميه، منطلقًا من المقهى الشعبيّ في حيّ أبو صرّة في المنامة، ويطوف بجميع الدكاكين في السوق».

يحضر الدكان في سيرة الخطيب السيد محمد صالح الموسوي «نسيج العمامة» في أشكال مختلفة: دكان يمدّ العائلة بما تحتاجه في اتفاق يعرف سابقًا بـالعميل، دكان المرح جدًا والحيوي عاشور بن عبد الله في زاوية البستان في السنابس الشرقية، ملتقى بهجة السيد بعد عودته ليلًا من المجالس التي خطب فيها، ودكان الخوف الذي منع صاحبهُ الخائف السيدَ من دخوله بعد محنة كتاب «حصايل الفكر» في المنامة.

في «سيرة خيوط الذهب»، الدكان ملتقى مزاج مطرزي البشوت ابتداءً من خياطة «البروج» وانتهاء بخياطة «لِمكسر»، حتى ينتهي العمل بالخبان. في شارع باب البحرين في المنامة، يرحّب صاحب دكان صناعة البشوت عبد الله بن علي الجعفر، المولود في المنامة العام 1953 من والدين إحسائيين، بالزائر بطريقة جميلة ورقيقة تشبه خيوط الذهب. هذه الصناعة تعلّم الدقّة والرقّة. تَعَلَّم خياطة البشوت منذ أن كان صغيرًا في دكان لأجداده في شارع العلاء الحضرمي في المنامة. كان الدكان يحمل اسم بوحمود، وهو اسم جدّه لأمه. عندما بلغ الجعفر سن السابعة أدخل مدرسة القلب المقدس حتى العام 1964. يقول الجعفر: «علّمتني نساء إيطاليات راهبات مخلصات في عملهن. كنت أراهنَّ كيف يبذلن جهودًا كبيرة في كل درس». وعندما أكمل دراسته الثانوية في المدارس الحكومية البحرينية، تفرّغ لدكان جدّيه.

الدكان هو سيرة حياة المصوّر «أحمد الماضي، صور ملوّنة بلذة ما بعد السياج»، خارج سياج كلّ شيء: الدين، الحيّ، حتى الدكان نفسه. دكان البصير إبراهيم البزاز الذي يرى بيديه، يضعهما على الجدار الفاصل بين باب بيته والباب الخشبي لدكانه. اليدان مصدر معرفةٍ لا يخطئ. بهدوء يشبه هدوء الحيّ عندما يغادره الرجال صباحًا إلى أعمالهم، يتحسّس الجدار بحثًا عن مزلاج باب الدكان ذي اللون الأخضر. يُتمتم بكلماتٍ وأدعية، الرزقُ في التبكير.

السيرة تحتاج إلى ترويج، ولا يفعل ذلك غير الدكان. الحبّ يحتاج أولًا وتاليًا إلى دكان.

حسين المحروس: ماجستير في الآداب، روائي وفوتوغرافي بحريني، مهتم بأرشيف الصورة، متخصص في كتابة السيرة، له مجموعة من الإصدارات الروائية والتوثيقية.

صفحة الفيسبوك husain.almahroos

مأذنة وجامع الفاضل في الجهة الشمالية من المنامة

صورة جوية لجسر المحرق الذي يربطها بالمنامة

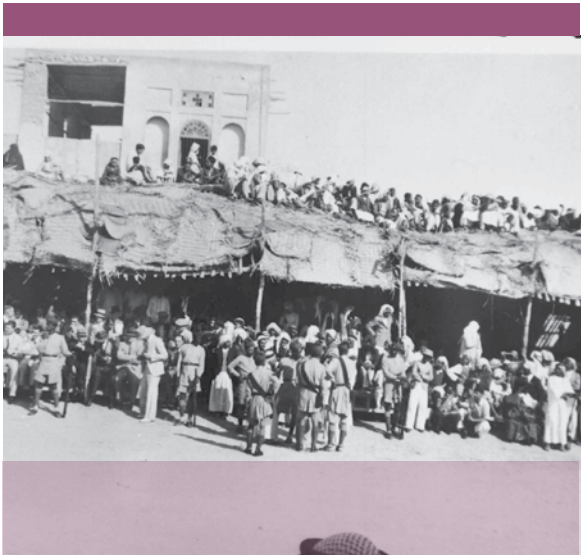

صورة لمناسبة رسمية في المنامة ويرى فيها الشرطة وبعض الانجليز

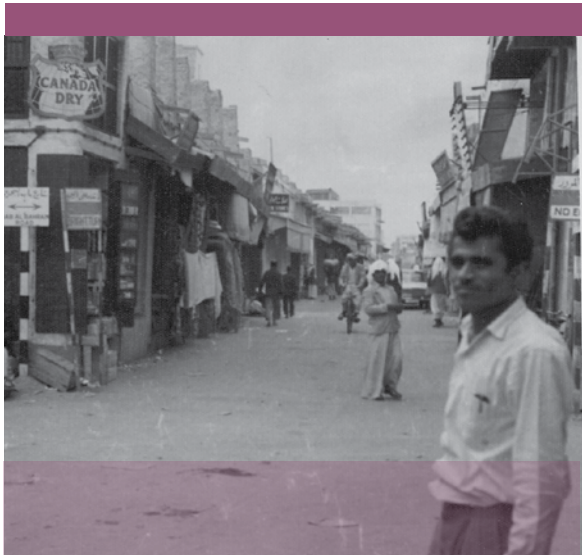

سوق المنامة القديم

أرشيفو

ARCHIVO

نشرة تهتم بموضوعات الأرشيف تصدر عن
مركز أوال للدراسات والتوثيق

ISSN 2414 - 5386

مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

info@awalcentre.com | www.awalcentre.com

awalcentre